

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الملك سعود - الرياض
كلية التربية - قسم الثقافة الإسلامية

المنار

في

علوم القرآن

تأليف

الدكتور محمد علي الحسن

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
(الطبعة الأولى)

١٩٨٣

مطبعة الشرق ومكتبتها
عمان - شارع المطلة - قرب دارنا

مقدمة

أحمد الله تعالى أن هدانا لهذا الدين ، وأصلي وأسلم على النبي
الاهي المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الغر الميامين ، ومن سار
على نهجهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد :

فخير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم
فلاشتغال بهذا العلم دراسة وتدريساً تعلماً وتعليماً مهنة جلييلة ومنزلة
رفيعة (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) فان كنا معلمين أو متعلمين مدرسين
أو دارسين صادقين في علمنا وعملنا فقد وقع أجرنا على الله ان شاء الله
وانا لنسأله تعالى الاجر والثواب .

ولما كنت عضواً في هيئة التدريس في قسم الدراسات الاسلامية
بكلية التربية فقد أسند الى تدريس مادة العلوم القرآنية فقامت بالكتابة
في هذا الموضوع في مصنف أسميته (المنار في علوم القرآن) وقد
رأعيت في صياغته سهولة العبارة ووضوح المعنى متجنباً كل حشو
لا فائدة من ذكره بلا ايجاز مخل ، وما ذلك الا ليكون عوناً لكل دارس
لهذا العلم حرصاً على الوقت وزيادة في الفائدة .

ومن الاعتراف بالفضل ورده الى أهله أن الذين يكتبون في هذا
العلم ليسوا بسابقين ، فقد سبقنا في هذا الميدان علماء باحثون قاموا
بخدمة القرآن خير قيام وقدموا لنا ثروة علمية يفخر بها المؤمنون
فالبرهان في علوم القرآن للزركش المتوفى سنة ٥٩٤ هـ والذي بحث في
علوم القرآن في سبع وأربعين نوعاً وكتابه يقع في أربع مجلدات
والاقتان في علوم القرآن للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ والذي بحث
المادة في ثمانين نوعاً وغيرهم كثير ما بين جامع شامل وما بين مقتصر على
بعض الأبحاث ، ولكن هذه الكتب القديمة لا يحسن كل الدارسين

الاستفادة منها فقد تكون العبارة صعبة المنال وتعلو على الافهام علاوة على أن الكثير من هذه الكتب يعوزه التحقيق العلمي العميق ومن هذه الكتب ما يعوزه حسن العرض .

هذا وقد كتب المحذثون كتباً في هذا العلم وقد أطلعت على ما وصلني منها أو ما وجدته في المكتبات العامة وبذلك رجعت الى القديم والحديث ودرستها دراسة مستوعبة - قدر جهدي - وعرفت مواطن الخطأ والزلل ونبته عليه وبيان خطورة القول به ، ولست أزعم لنفسي العصمة ، ولكن حسبي أنني بذلت جهدي ودلوت بدلوي فان أصبت الحق فهذا ما أبتغي وأريد وأن أخطأت فمن نفسي واستغفر الله وأني رجاء الى الحق أن شاء الله ، وأرجو من القارئ الكريم أن يرشدني اليه ، ورحم الله عمر رضي الله عنه القائل : (رحم الله رجلاً أهدى الي عيوبي) ، أرجو الله أن يجبر خلدي ويغفر زللي وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد علي الحسن

الرياض في غرة رمضان ١٤٠١ هـ

الباب الأول
القرآن والوحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

القرآن الكريم

المبحث الأول

تعريف القرآن لغة وشرعاً

١ - المعنى اللغوي :

أ - يرى بعض العلماء أن القرآن مصدر على وزن (فعلان) كأنغفران والشكران فهو مهموز اللام من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً بمعنى تلا بتلو تلاوة ، وبهذا المعنى ورد في قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، أن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » (١) . أي إذا تلوناه فاتبع تلاوته ، وقد روعي في تسميته قرآناً كونه متلوّاً بالأسن ، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه (٢) .

ب - وذهب الشافعي ورجح قوله السيوطي الى أن القرآن علم غير مشتق فهو اسم لكتاب الله مثل سائر الكتب السماوية (٣) .

٢ - المعنى الشرعي :

لقد عرف علماء الأصول والكلام وغيرهم القرآن بتعريفات كثيرة منهم المسهب ومنهم المختصر وكلاهما لم يحدد التعريف تحديداً سديداً . وأحسن هذه التعاريف وأقومها قول القائل أن القرآن (هو كلام الله المعجز المنزل على النبي ﷺ المنقول تواتراً والمتعبد به تلاوة) .

١ - سورة القيامة الآيات ١٦-١٩ .

٢ - النبأ العظيم للمرحوم محمد عبدالله دراز ص ١٢ دار القلم الكويت .

٣ - الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٥١ .

فكلام الله المعجز ، قد أخرج كلام غير الله فهو ليس بكلام انس
ولا جن ولا ملائكة ولا نبي أو رسول فلا يدخل فيه الحديث القدسي
ولا الحديث النبوي .

وخرج بقيد - المنزل على النبي ﷺ - الكتب المنزلة على الرسل
من قبله كصحف ابراهيم والتوراة المنزلة على موسى والانجيل المنزل على
عيسى عليه السلام .

أما القيد - المنقول تواتراً - فقد أخرج به كل ما قيل انه قرآن
ولم يتواتر ، وكذلك القراءات الشاذة غير المتواترة فانها رويت على أنها
من القرآن الا أن نقلها آحاداً قد جعلها غير معتبرة فلا يعتبر من القرآن
قراءة ابن مسعود في قوله تعالى : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام
متتابعات » (٤) .

فقد زاد (متتابعات) ولا قراءته كذلك في قوله تعالى :
« وآتيتم اعداءن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً بزيادة » (قنطاراً من
ذهب) (٥) .

أو قراءة ابن عباس : « ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلاً من
ربكم في مواسم الحج » (٦) بزيادة في (مواسم الحج) ولا قراءة من قرأ
(والسارق والسارقة فاقطعوا ايماهما) بدل ايديهما فما زيد أو بدل
في هذه القراءات وأمثالها لا يصح اعتبارها قرآناً حتى ولا حديثاً
نبوياً لأنها نسبت الى قارئها فلا يعدو اعتبارها أكثر من أنها تفسير
أو رأي للمثبت لها .

أما القيد الأخير المتعبد به تلاوة - فقد خرج به الحديث التديسي
فانه وان كان منسوباً الى الله الا أنه غير متعبد بتلاوته كما سنبينه بعد
قليلاً .

-
- ٤ - انظر الاتقان في علوم القرآن تحت عنوان القراءات وكذلك كتب
التفسير في سورة المائدة آية رقم ٨٩ .
٥ - انظر تفسير ابن كثير لسورة النساء ج ١ ص ٤٦٧ .
٦ - انظر الاتقان تحت بحث القراءات ، ج ١ ص ٨٣ .

المبحث الثاني

أسماء القرآن

صنف أحد العلماء في أسمائه جزءاً وذكر نيفاً وتسعين اسماً وذكر بعضهم أقل من ذلك ، قال القاضي أبو المعالي : عزيز بن عبد الملك رحمه الله . أعلم أن الله تعالى سمي القرآن بخمسة وخمسين اسماً وقد ذكر صاحبها البرهان والاتقان وجوهاً للتسمية ومعانيها ، أما الطبري فقد اكتفى بذكر أشهرها مبيناً معانيها من هذه الأسماء :

١ - سماه الله تعالى كتاباً فقال : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » (٧) . والكتاب مصدر كتب يكتب كتابة وأصلها الجمع وسميت الكتابة لجمعها الحروف فاشتق الكتاب لذلك لأنه يجمع أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة ويسمى المكتوب كتاباً مجازاً قال تعالى : « في كتاب مكنون » (٨) .

٢ - وسماه ذكراً فقال : « أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون » (٩) وذلك لما فيه من المواعظ والتحذير وأخبار الأمم الماضية ، والذكر أيضاً يأتي بمعنى الشرف والفخر لمن آمن بالقرآن وصدق بآياته ومنه قوله تعالى : « أنه لذكر لك ولقومك ولسوف تسألون » (١٠) أي شرف لك ولقومك .

٣ - وسماه فرقاناً فقال : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (١١) وذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل والمؤمن والمنافق والمسلم والكافر وقيل لأنه مفروق بعضه عن بعض في النزول (١٢) أما ابن عباس فكان يقول : الفرقان المخرج ، وقال آخرون : الفرقان هو الفرق بين الشيئين والفصل بينهما وقد يكون ذلك بقضاء واستفتاء

٧ - سورة الواقعة آية ٧٨ .

٨ - سورة الجاثية آية ١ .

٩ - سورة الحجر آية ٩ .

١٠ - سورة الزخرف آية ٤٤ .

١١ - سورة الفرقان آية ١ .

١٢ - مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج ١ ص ٨ .

واظهار حجة وتعريف وغير ذلك من المعاني المفرقة بين المحقق والمبطل والقرآن انما سمي فرقانا لفصله بحجته وأدلته وحدوده وفرائضه وسائر معاني حكمه بين المحق والمبطل وفرقانه بينهما تبصرة المحق وتخذيذه المبطل حكماً وقضاء (١٣) .

٤ - وسماه التنزيل : وقد وردت بذلك آيات كثيرة : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين » (١٤) . وغيرها من الآيات والتنزيل مصدر رسمي به الكلام المنزل من عند الله على رسوله وتسميته بذلك من قبيل تسمية المفعول بالمصدر وهو من الاسماء الشائعة على ألسنة العلماء حيث يقولون ورد في التنزيل ويعنون القرآن .

٥ - واسماء أخرى ، بل صفات كثيرة منها مباركا كما ورد في قوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك » (١٥) . والحكيم كما قال في قوله تعالى : « يس والقرآن الحكيم » (١٦) والمجيد كما في قوله تعالى : « ق والقرآن المجيد » (١٧) . وغيرها من الاسماء والصفات ومن أراد الاستزادة فيرجع الى كتابي البرهان والاتقان في علوم القرآن .

الفرق بين القرآن والحديث القدسي :

قد ينسب الحديث تارة الى النبي ﷺ فيقال حديث النبي ، وقد ينسب الى القدس فيقال الحديث القدسي (١٨) والحديث كما عرفه العلماء هو ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير (فالأقوال التي

١٣- التبيان في علوم القرآن ص ١٢٢ .

١٤- سورة الشعراء آية ١٩٣ .

١٥- سورة ص آية ٢٩ .

١٦- سورة يس آية ١ .

١٧- سورة ق آية ١ .

١٨- أقدم الكتب في هذا الموضوع مشكاة الأنوار فيما يروى عن الله لمحي الدين بن العربي والجامع الكبير للسيوطي ، وكذلك الجامع الصغير كتاب الاتحافات السننية في الأحاديث القدسية لعبدالرؤوف المناوي ، وكتاب أدب الأحاديث القدسية لأحمد الشرباصي .

تصدر عن النبي ﷺ تعتبر من الأحاديث النبوية فاذا ما نسبت الى الله عز وجل سماها العلماء أحاديث قدسية وذلك كقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال :

يا عبادي : اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .

يا عبادي : كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهدكم .

يا عبادي : كلكم جائع الا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم .

يا عبادي : كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني اكسكم .

يا عبادي : انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا اغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني اغفر لكم .

يا عبادي : انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفي فتنفوني .

يا عبادي : انما هي اعمالكم احصيتها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يومن الا نفسه) .
رواه مسلم (١٩) .

أو كقول الرسول ﷺ يقول الله عز وجل : (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه اذا ذكرني نفسه ذكرته في نفسي وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) رواه البخاري ومسلم .

والمتأمل في نصوص الأحاديث القدسية هذه وغيرها يلاحظ وحدة الأسلوب بينها وبين الأحاديث النبوية ، فانكل قد وقع بلفظ النبي ﷺ سواء أكان الحديث نبوياً أم قدسياً فكلاهما في مرتبة واحدة وان كان الحديث القدسي منسوباً الى الذاب العلية (٢٠) . وأن هذه النسبة أيضاً لا تجعله في مرتبة القرآن بل ان بينهما فروقاً نوجزها فيما يلي :

- ١٩- الحديث الرابع والعشرين في متن الأربعين النووية .
- ٢٠- يطلق بعض العلماء على الأحاديث القدسية بالأحاديث الالهية أو الربانية والكل معزو الى الله أو الى الرب عز وجل .

١ - ان القرآن الكريم - لفظاً ومعنى من الله عز وجل ، أما الحديث القدسي فهو كالحديث النبوي حتى أجاز العلماء روايته بالمعنى بخلاف القرآن لأن روايته بالمعنى تحريف وتبديل له .

٢ - ولأن القرآن بلفظه ومعناه من الله فقد وقع به التحدي والاعجاز أما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي فهو في ذلك كالحديث النبوي سواء بسواء .

٣ - ان القرآن متعبد بتلاوته فتالي القرآن مثاب على تلاوته وتلاوته في الصلاة ركن من أركانها فلا تتم الصلاة بدونه : « فاقْرَأُوا مَا تيسر من القرآن » (٢١) . وهذا بخلاف الحديث القدسي فإنه كالحديث النبوي .

٤ - كل آي القرآن الكريم آية متواترة والاحاديث القدسية كالأحاديث النبوية فيها القطعي الثبوت وأكثرها ظني في ثبوته .

بعد كل هذا لا يخطر على بالك أو يدور في خلدك أن الحديث القدسي كالقرآن الكريم لقول الراوي قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أو روى الرسول عن ربه عز وجل فان هذه الشبهة مردودة وباطلة وما قول النبي ﷺ هذا الا ضرب من ضروب الأساليب العربية الشائعة الذائعة المستعملة على لسان العرب حين يقولون : كقول الشاعر في قصيدته كذا وكذا ثم لا يذكرون بيت الشعر لفظاً بل يوردون معانيه من غير مراعاة لحرفية الألفاظ ولا الأوزان والقوافي الشعرية ، بل أن في القرآن الكريم خير شاهد على ما نقول ، فقد حكى الله عز وجل قصص الأنبياء وجدالهم مع قومهم ولم يحك عن ألفاظهم التي استعملوها بل ذكر مضامينها ومعانيها مصوراً لنا مواقفهم بأفصح الألفاظ وأنصح البيان ، قال تعالى في سورة نوح عليه السلام : « قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهاراً فلم يزدتهم دعائي الا فراراً واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ثم اني دعوتهم جهاراً ثم اني أعلنت لهم وأسررت لهم اسراراً فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً » (٢٢) .

٢١- سورة المزمل آية ٢٠ .

٢٢- سورة نوح الآيات ٥ - ١١ .

فهل هذه الألفاظ القرآنية هي عين الألفاظ التي قالها نوح عليه السلام ؟ أو هي مضمون ومعنى ما قاله وقالوه ؟ وهل حين حكى الله عن غيره من الرسل حكايات هي عين الفاظهم ؟ .

اللهم لا لقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (٢٣) .

المبحث الثالث

لغة القرآن

لقد وصف القرآن الكريم بأنه عربي فقال تعالى : « أنا جعلناه قرآناً عربياً » (٢٤) وقال أيضاً : « بلسان عربي مبين » (٢٥) .

وعلى الرغم من وضوح هذا الأمر إلا أن هذه القضية كانت مشار اهتمام عند المتقدمين والمتأخرين فذهب السيوطي وابن النقيب الى أن القرآن أشتمل على ألفاظ ليست عربية واستدلوا على ذلك :

١ - بما روي عن بعض الصحابة فعن ابن عباس حين سئل عن قوله تعالى : « فرت من قسورة » (٢٦) وقال هو بالعربية الأسد وبالفارسية شاد وبالقبطية أريا وبالحبشية قسورة . وحين سئل ابن عباس عن معنى قوله تعالى : « أنه كان حوباً كبيراً » (٢٧) . قال اثماً كبيراً بلغة الحبشة .

وعن ابن مسعود أنه فسر لفظ ناشئة في قوله تعالى من سورة المزمل : « ان ناشئة الليل هي اشد وطناً واقوم قليلاً » قال الناشئة : هي بالحبشية

-
- ٢٣- سورة ابراهيم آية ٤ .
 - ٢٤- سورة الزخرف آية ٣ .
 - ٢٥- سورة الشعراء آية ١٩٥ .
 - ٢٦- سورة المدثر آية ٥١ .
 - ٢٧- سورة النساء آية ٢ .

قيام الليل وبما روي عن بعض التابعين فعن مجاهد أنه فسر القسطنط في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسطنط » (٢٨) ، فقال : أن القسطنط هو العدل بالرومية وبما رواه ابن جرير عن ميسرة أنه قال : (أن في القرآن من كل لسان) (٢٩) وقد أورد السيوطي ما ورد في القرآن عن بعض الألسن ، فما ورد بلسان الحبشة الأرائك بمعنى السرر وأواه : المؤمن وقيل بمعنى الرحيم ، وطوبى اسم للجنة و بلسان العبرية مرقوم بمعنى مكتوب ، وراعنا وهي كلمة سب عند اليهود و بلسان الروم ، فصرهن أي قطعهن وطقفا أي قصدا ، والفردوس بمعنى البستان (٣٠) و بلسان الفرس : سجيل عن مجاهد قال : سجيل بالفارسية أولها حجارة وآخرها طين . وسرادق بمعنى الدهليز والسندس بمعنى رقيق الديباج وبالنبطية : وهو بمعنى سهلا دمثاً وبأيدي سفرة أي بأيدي القراء .

وبالسريانية : أسفار بمعنى الكتب وكلمة شهر ذكر بعض أهل اللغة أنها سريانية ، وقد حصر بعض العلماء هذه الألفاظ ما بين مقل ومكثر فالغزالي حصرها في كلمتين أو ثلاث وحصرها تاج السبكي بسبع وعشرين لفظاً ونظمها شعراً وزادها ابن حجر العسقلاني أربعاً وعشرين لفظاً ونظمها شعراً أيضاً . كما زاد عليها السيوطي بضعة وستين فتتم أكثر من مائة لفظ .

والحصر هنا قد بولغ في قلته كما بولغ في كثرته لأن زيادة لفظ يقتضي ممن زادها أن يكون عارفاً ومستقصياً بأن هذا اللفظ موجود في تلك اللغة وأن وجوده سابق لوجوده باللغة العربية وهذا أمر ليس بهين لما يستلزمه من بحث في فقه هذه الكلمة وتاريخ استعمالها وغير ذلك .

والسيوطي قد بالغ في ذلك لأنه يرى أن احتواء القرآن لمثل هذه الألفاظ أمر لا بد منه فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شيء .

٢٨- سورة النساء آية ١٣٥ .

٢٩- مقدمة تفسير ابن جرير ١م ، ص ٦-٧ .

٣٠- يراجع كتاب المتوكلي للسيوطي في هذه الألفاظ .

كما يرى ابن النقيب أن هذا من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغة غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير . هذه الدعوى عريضة وفيها نظر :

١ - فدعوى أن القرآن فيه من كل لسان من العرب وغيرهم أمر غير ثابت لأنه في لغات العرب لغات مهملة وساقطة ، والقرآن منزله عن إيراد شيء منها ، فالفاظه من أفصح الالفاظ ومن أكثرها استعمالاً عند الفصحاء والبلغاء .

٢ - لا يمكن استقراء واستقصاء الالفاظ القرآنية ومقارنتها باللغات السائدة في ذلك الزمن . . . فهل يمكن تصور مثل هذا الاستقراء الذي ذكرناه حتى يصح أن يكون هذا الرأي سليماً يصح الأخذ به؟

إن مثل هذا القول لا يصح أن يلقي على عواهنه دون دليل لأن القرآن أقدم من أن يقال في شأن من شؤونه شيء دون أن يكون معتمداً على دليل اللهم إلا إذا قلنا : أن المراد من كل لسان إنما هو لسان يتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرهم من الأمم التي تنطق به كما فسره بذلك ابن جرير الطبري (٣١) .

أما القائلون بأن القرآن كله عربي فثلاث فرق :

الفريق الأول : منهم الشافعي والطبري .

فالامام الشافعي يقول في رسالته : ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب . . . فالواجب على العالمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به وأقرب إلى السلامة له أن شاء الله .

٣١- جامع البيان : ١/٧-٨ ، ط الاميرية .

فقال قائل منهم : ان في القرآن عربياً وأعجمياً ، والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء الا بلسان العرب ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليداً له وتركاً للمسألة عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه وبالتقليد أغفل من أغفل منهم والله يغفر لنا ولهم ، ولعل من قال ان في القرآن غير لسان العرب وقبل ذلك منه ذهب الى أن من القرآن خاصاً يجهل بعضه بعض العرب ، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها الفاظاً ولا نعلمه يحيط بجميع علما انسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى يكون موجوداً فيها من يعرفه والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء فاذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن واذا فرق عام كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها ثم كان ما ذهب عليه منها موجوداً عند غيره (٣٢) .

وأما الطبري فقد قال : ان الذي قالوه من ذلك غير خارج من معنى ما قلنا من أجل أنهم لم يقولوا : هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً ولا كان ذلك لها منطقاً قبل نزول القرآن ولا كانت به العرب عارفة قبل مجيء الفرقان ، فيكون ذلك قولاً لقولنا خلافاً . انما قال بعضهم حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا ، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا . ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة وذلك كالدرهم ، والدينار ، والدواة ، والقلم والقرطاس ، وغير ذلك مما يتعب احصاؤه ويميل تعداده ، كرهنا اطالة الكتابة بذكره مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى ، ولعل ذلك كذلك في سائر الألسن التي يجهل منطقها ولا يعرف كلامها . فلو أن قائلاً قال فيما ذكرنا من الأشياء التي عددنا وأخبرنا اتفاقه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية وما أشبه ذلك مما سكتنا عن ذكره كله فارسي لا عربي أو ذلك كله عربي لا فارسي ، أو قال : بعضه عربي وبعضه فارسي ، أو قال : كان مخرج أصله عند العرب فوقع الى العجم فنطقوا به ، أو قال : كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع الى العرب فأعربته كان مستهجلاً ، لأن العرب ليست بأولى أن تكون كان مخرج أصل ذلك الى العجم ، ولا

٣٢- الرسالة للشافعي ، تحقيق المرحوم أحمد شاکر .

العجم بأحق أن تكون كأن مخرج أصل ذلك عنها الى العرب ، اذا كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجوداً في الجنسَيْن ... ثم قال : وهذا المعنى الذي قلناه في ذلك هو معنى قول من قال : في القرآن من كل لسان عندنا بمعنى : ان فيه من كل لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرهم من الأمم التي تنطق به نظير ما وضعنا من القول فيما مضى ، وذلك أنه غير جائز أن يتوهم على ذي فطرة صحيحة مقر بكتاب الله ممن قد قرأ القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن فارسي لا عربي ، وبعضه حبشي لا عربي ، بعد ما أخبر الله تعالى ذكره عنه أنه جعله قرآناً عربياً (٣٣) . أما أبو عبيدة (٣٤) فقال : من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم القول ، واحتج بقوله تعالى : « **أنا جعلناه قرآناً عربياً** » ويقول الرازي : والذي يدل على فساد هذا المذهب أي القول فيه غير العربية - قوله تعالى : « **قرآناً عربياً** » وقوله : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه** » .

أما **الفريق الثاني** فيرى أن القرآن كله عربي دعوى أن في القرآن الفاظاً عربية وأصلها أعجمي دعوى معكوسة تماماً . يقول أبو بكر الباقلاني : القرآن عربي لا عجمة فيه ، فكل كلمة في القرآن استعمالها أهل لغة أخرى فيكون أصلها عربياً انما غيرها غيرهم تفسيراً ما ، كما غير العبرانيون فقالوا : للالة : لاهوت ، ولناسك : ناسوت . وهذا القول لا يستند الى دليل بل الواقع يبطله فكما حكم الباقلاني على أن هذا اللفظ أصل عربي وانتفع به العجم فمن الممكن أن يقع عكس هذا الأمر واحتكاك الشعوب ببعضها ونقلها لبعض الألفاظ سابقاً ولاحقاً خير دليل . فالأفضل أن نذهب الى ما ذهب اليه علماء **الفريق الثالث والأخير** ، فقد ذهبوا الى أن القرآن كله عربي وليس فيه لفظ واحد غير عربي ، لأنه لو كان غير ذلك لما صح وصف الله له بأنه عربي : « **أنا جعلناه قرآناً عربياً** » ولما صح قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه** » ولما صح قوله تعالى : « **بلسان عربي مبين** » لأنه عند ذلك يكون مشتلاً

٣٣- جامع البيان : ٧/٨ -

٣٤- هو معمر بن المثنى التيمي كان أعام أهل زمانه . عاصر الشافعي . عاش مائة عام ، ولد سنة ١١٠هـ ومات سنة ٢١٠هـ .

على غير اللغة العربية أي فيه الأعجمية التي نفاها الله تعالى بأبلغ نفي بصيغة الاستفهام الإنكاري بقوله جل وعلا : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي » (٣٥) .

أما اشتمال القرآن على مثل الألفاظ السالفة الذكر وإن كان لا يهمننا العدد في تحديد الكلمات فإنها ألفاظ أن لم تكن عربية فإنها معربة واللفظ المعرب كاللفظ الذي وضعه العرب سواء بسواء . والشعر الجاهلي قد اشتمل على مثل تلك الألفاظ المعربة قبل نزول القرآن ، منها هو امرؤ القيس يستعمل لفظة السجنجل في معلته المشهورة :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

والسجنجل بمعنى المرأة وهي لفظة معربة (٣٦) لم يستعملها العرب من قبل والتعريب في هذه الألفاظ لا يكون بأخذها كما وردت عن الاعاجم بل لا بد من صياغتها على تفعيلة من التفعيلات العربية كفاعل وفعل وفاعل وافتعل واستفعل وغيرها فإن وافقتها أخذ بها والا أنقص أو أبدل حرف منها حتى توافق أوزان التفعيلات ، فالتعريب هو صوغ الكلمة الأعجمية صياغة جديدة بالوزن والحروف العربية . وبهذا دخلت الألفاظ الأعجمية إلى اللغة العربية ولكنها أصبحت عربية حين لاكتها العرب بألسنتها .

نعم اننا لا نستطيع أن نجزم أن جميع الألفاظ التي أوردها بعض العلماء هي ألفاظ أعجمية في الأصل لأن القطع بهذا يحتاج إلى تنبص اللفظ والتنقلات التي اعتورته حتى نصل إلى منشئة الأصل ، ومثل هذا البحث لا سبيل له أن يكون قاطعاً في جميع مراحلها لأنه كثيراً ما يعتمد على إمارات هي وإن كانت جلية إلا أنها لا تعطينا القطع .

٣٥- سورة فصلت آية ٤٤ .

٣٦- أن التعريب جائز لكل مجتهد في اللغة العربية - قديماً وحديثاً - وذلك لأنه صياغة وليس بوضع وهو غير خاص بالعرب الإقحاح بل عام لكل عالم مجتهد بالعربية حتى يتأتى له جعل اللفظة الأعجمية لفظة عربية . غير أنه ينبغي أن يعلم أن التعريب خاص بأسماء الأشياء وليس عاماً لكل لفظ أعجمي ، فالتعريف لا يدخل الألفاظ الدالة على المعاني ولا الجمل الدالة على الخيال وإنما هو خاص بأسماء الأشياء ولا يصح في غيرها مطلقاً ، والعرب حين عربت إنما عربت أسماء الأشياء ولم يجر التعريب في غيرها كما هو ملاحظ

غير أن الذي لا شك فيه أن احتكاك الأمم يؤدي حتماً إلى احتكاك اللغات ويتولد عن الاحتكاك أخذ ورد من لغة إلى أخرى .

في جميع الكلمات الأعجمية التي ورد استعمالها في الشعر العربي في الجاهلية أو التي ورد ذكرها في القرآن الكريم .
أما بالنسبة للمعاني فقد وضعوا الاشتقاق والنسبة للتخيلات والتشبيهات قد وضعوا المجاز ولم يستعملوا التعريب إلا في أسماء الأشياء ويدخل فيها أسماء الاعلام مثل ابراهيم . والتعريب كالاقتناع والمجاز ضرورة من ضرورات الحياة ، ومن ضرورات حياة اللغة العربية وبقائها بل ضرورة من ضرورات الشريعة الإسلامية فان المعاني تتجدد كل يوم ، والأشياء تتجدد كل يوم ، والمسلمون بحكم قيامهم بفرض حمل الدعوة الإسلامية إلى العالم لا بد أن يختلطوا بالأمم الأخرى وبحكم حاجتهم إلى العلوم والاكتشافات والاختراعات لا بد أن يأخذوا عن الأمم الأخرى هذه العلوم والاكتشافات ، وهذا كله يفرض عليهم التعريب والاشتقاق والمجاز فرضاً ويضعهم أمامه وجهاً لوجه ، إذ لا بد لهم من أن يبينوا أفكار الإسلام وأحكاماً منزلة على الوقائع والأشياء التي عند الأمم الأخرى ، ولا بد أن يضعوا أسماء لمسميات جديدة من الاختراعات الحديثة ، ولا بد من بيان الحكم الشرعي في كل ما يتجدد ويحدث من وقائع الأشياء . ومن هنا كان لزاماً عليهم أن يضعوا ألفاظاً جديدة لم تكن موجودة من قبل للأشياء والمعاني الجديدة التي لم تكن من قبل وبذلك تبقى اللغة العربية حية بالاستعمال .
أما طريقة التعريب فلا تكون بأخذ اللفظة الأعجمية والتعبير عنها بلفظ يدل على معنى مثله بالعربية كما حاول بعض المعربين حالياً في كلمات : قطار ، وعربة ، وسيارة ، وهاتف ، ومقود ، فان هذا العمل يدل على جهل مطبق ويدل على جمود فكري . ذلك لأن هذه أسماء لأشياء وليست معان ولا تخيلات وتشبيهات والواجب اتباعه أن تؤخذ الأسماء الأعجمية نفسها وتصاغ على تفعيلة من التفعيلات العربية ، ومن الحروف العربية فكلمة تلفون مثلا كان يجب أن تؤخذ كما هي الآن لأن وزنها وزن عربي فعملول ومنها عربون وحروفها كلها حروف عربية وكلمة (جدون) وزنها وزن عربي فعول ومنه جهول ، ولكن حرف غير موجود في اللغة العربية فيوضع بدله حرف (ج) أو حرف (غ) فيقال (عدون) أو (جدون) فتصبح لفظة معربة وهكذا باقي الكلمات وبهذا تكون اللغة العربية مرنة وكما قال القائل : (لغتنا العربية يسر لا عسر) ونحن نكملها كما كان الأقدمون يملكونها ولنا أن نضيف إليها كلمات لم تكن مستعملة من قبل .

هذه القاعدة تعطينا أن اللغة العربية أخذت من غيرها كما أخذ غيرها منها وهي وأن كانت لا تعطينا قولاً قاطعاً بأن هذه الألفاظ التي روي أنها من لغات غير عربية أنها لغات غير عربية ولم تكن في الأصل عربية أخذتها تلك اللغات من العربية فإنها تعطينا ظناً راجحاً أنها معربة قبل نزول القرآن متى ثبتت هذه الروايات دون نظر إلى ما كان قبل ذلك التاريخ وهذا يكفي في أن تصبح عربية فلا يكون في القرآن مطعن بوجودها فيه .

وقد وفق بين الآراء الأديب اللغوي الجواليقي البغدادي فقد قال :
(قال أبو عبيد القاسم ابن سلام أن القرآن كله عربي وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة : أنه من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة واليم والطور وأباريق وأستبرق وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيد ولكنهم ذهبوا إلى مذهب وذهب هذا إلى غيره وكلاهما مصيب أن شاء الله تعالى وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل فقال : أولئك على الأصل ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته فصار عربياً بتعريبها إياه فهي في هذه الحال أعجمية الأصل) (٣٧) .

وعلق المرحوم الشيخ الزفزاف فقال : (وهذا الرأي الذي ذكره أبو عبيد إنما أراد به أن يجعل الخلاف بين الفريقين السابقين لفظياً . والذي يظهر لي أنه ليس كذلك لأن الإمام الشافعي ومن معه لم يكونوا يجهلون أن العرب إذا تكلمت اللفظ الأعجمي يصبح عربياً ، ولكنهم كانوا يرون أن القطع بأن هذه الألفاظ أعجمية الأصل لا سبيل إليه . كما يفهم ذلك من أقوالهم فضلاً عن أنهم كانوا يرون أن القول بذلك يفتح باب الطعن في القرآن كما يفهم من كلام القاضي أبي بكر الباقلاني وهم يرون غلق هذا الباب ، وقد بينا لك أنه لا مطعن بذلك ما دامت العرب قد تكلمت به فأصبح من لغتهم كما ذكر الغزالي وهذا يكفي في أن لا يمس قداسة القرآن . والله أعلم) .

٣٧- المعرب : ط ٤ ، دار الكتب المصرية والتعريف بالقرآن والحديث
للشيخ محمد الزفزاف ، صفحة ٢٥-٢٩ .

الفصل الثاني

الوحي

المبحث الأول

معنى الوحي لغة وشرعاً

١ - المعنى اللغوي :

الوحي مصدر بمعنى الاشارة السريعة الخفية ، يقال أوحيت الى فلان اذا كلمته بسرعة وخفية ، وأوحى ايماء الى فلان بمعنى أشار ، وأوحى الله اليه : ألهمه (١) وقد ورد في القرآن الكريم استعمال هذه المعاني من ذلك :

أ - الالهام الفطري للانسان ومن ذلك قوله تعالى في سورة القصص :
« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » (٢) .

ب - الالهام الغريزي للحيوان كقوله تعالى : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٣) .

ج - الوسوسة بالشر سواء أصدرت من انسان الى انسان أم من جن الى شيطان الى انسان ومن ذلك ما ورد في سورة الانعام :
« وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى

١ - انظر القواميس العربية كالقاموس المحيط .

٢ - سورة القصص آية ٧ .

٣ - سورة النحل آية ٦٨ .

بعض زخرف القول غروراً» (٤) ، وفي نفس السورة قال تعالى :
« وأن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » •

د - وبمعنى أشار وأوماً ورد في قوله تعالى في سورة مريم عن زكريا عليه السلام : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيّاً » (٥) ، فالوحي هنا لا يجوز أن يكون المراد به الكلام لأن الكلام كان ممنوعاً عليه لقوله تعالى في الآية التي قبلها : « آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويّاً » قال الرازي : والأشبهه بالآية هو الإشارة وهو أن يعرفهم ذلك أما بالإشارة أو برمز مخصوص لقوله تعالى في سورة آل عمران : « قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً » والرمز لا يكون كتابة للكلام (٦) •

٢ - المعنى الشرعي :

لتد عرفه العلماء بتعريفات كثيرة منهم من أسهب فقال : (الوحي هو أن يعلم الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر وكذلك عرفه الشيخ محمد عبده بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه على اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعة أو بغير صوت ويفرق بينه وبين الإلهام أن الإلهام وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجودان الجوع والعطش والحزن والسرور) •

ومنهم الموجه في تعريفه بقوله : (كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه) كل هذه التعريفات لم تخل من مقال ونقد فما بين مطول باللفظ مع خلل بالفكرة وما بين مختصر قاصر المعنى •

٤ - سورة الانعام آية ١١٢ •

٥ - سورة مريم آية ١١ •

٦ - انظر التفسير الكبير ، ج ٢١ ص ١٩٠ ، طه عبد الرحمن محمد •

وأفضل التعريفات وأحسنها ما روي عن الزهري حين سئل عن الوحي فقال : (الوحي ما يوحي الله الى نبي من الأنبياء فيثبته في قلبه فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله) (٧) .

فالوحي اذن هو كلام الله المنزل بواسطة على رسول من الرسل وخير بيان لحقيقته قول الله تعالى : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) (٨) .

المبحث الثاني

دليل الوحي

ان الدليل على حقيقة الوحي شرعي لا عقلي لانه من الامور الغيبية التي لا يقع عليها الحس ، والذين يدللون على الوحي بالأدلة العقلية ولو بحسن نية - انما هم وهمون ومخطئون ، فان للعقل دائرته التي لا يتعداها فهو يسلمنا الى حقيقة وجود الخالق ويرشدنا اليه فاذا ما أسلمنا الى هذه الحقيقة فقد هداانا الى الايمان الذي من مقتضياته التسليم بما أخبرنا من أدلة قطعية فقد قال تعالى : « انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده » (٩) . وقال تعالى : « وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا » (١٠) . وقال تبارك وتعالى : « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » (١١) .

ويكفي دلالة على حقيقة الوحي اعجاز القرآن الذي اثبت عقلا انه من الله على رسوله وان من آياته المعجزة ما دلنا على الوحي ومصدره والنازل به والمنزل عليه والكيفية والحالة التي نزل بها . اما التدليل على حقيقة الوحي بالأدلة العلمية لتقريبه للعقل فهو مجاف للصواب لقد

٧ - انظر الاتقان في علوم القرآن عي مبحث الوحي ، ج ١ ص ١٤ .

٨ - سورة الشعراء الآيات ١٩٢-١٩٥ .

٩ - سورة النساء آية ١٩٦٣ .

١٠ - سورة الشورى آية ٤٢ .

١١ - سورة النجم الآيات ٣ و ٤ .

راحوا يفتشون لنا عن المقررات العلمية لاثبات القضايا الغيبية فوجود الدليل الأول في التنبؤ المغناطيسي فقالوا : ان الذي كشف هذا هو الدكتور مسمر العالم الألماني في القرن الثامن عشر وجاهد هو واتباعه مدى قرن كامل من الزمان في سبيل اثباته وحمل العلماء على الاعتراف به وقد نجحوا في ذلك فاعترف العلماء به علمياً بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق وأطمأنوا الى تجاربه وأخيراً اثبتوا بواسطة ما يأتي :

١ - ان للانسان عقلا باطناً أرقى من عقله المعتاد كثيراً (١٢) .

٢ - انه وهو في حالة التنبؤ المغناطيسي يرى ويسمع من بعد شاسع ويقراً من وراء حجاب (١٣) ويخبر عما سيحدث مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه (١٤) ثم ذكر ما يزيد عن ثمان حالات وصفها بأنها حقائق علمية لا مجال للشك فيها .

ثم قال : واننا نضع بين يديك تجربة واحدة من تجارب التنبؤ المغناطيسي تقرب اليك الوحي كل التقريب وهذه التجربة رأيتها بعيني وسمعتها بأذني بنادى جمعية الشبان المسلمين وعلى مرأى ومسمع من جمهور مثقف كبيرة (١٥) .

ثم بعد أن ساق التجربة قال : (وبهذه التجربة - أيضاً - يثبت لي أنا من طريق علمي ما قرب الى الوحي علمياً وما جعلني اعلله تعليلاً علمياً فالوحي عن طريق الملك عبارة عن اتصال الملك بالرسول يؤثر به الأول في الثاني ويتأثر فيه الثاني بالأول وذلك باستعداد خاص في كليهما) (١٦) .

١٢- ان أراد بهذا الكلام اقناع المسلمين بوقوعه فان المسلم يكفيه قول الله ، وان أراد أن يدلل لغير المسلم بهذه الواقعة على إمكانية حدوث الوحي في عالم الواقع فان هذا الكلام يشككه حين يزعم ان العقل الباطني أرقى من عقله الظاهر وبهذا يستطيعون الزعم ان الوحي ظاهرة لا تدل على صدق مدعيها .

١٣- كأنه يرى في حادثة التنبؤ المغناطيسي حالتين من حالات الوحي حالة الايحاء وحالة التكليم من وراء الحجاب .

١٤- كلام يشبه الشطحات الصوفية وتخيلات الكهان .

١٥- مناهل العرفان ، ج ١ ص ٥٩ .

١٦- المرجع السابق ، ج ١ ص ٦١ و ٦٢ .

هذا الدليل العلمي الأول أما الثاني فهو أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده وننتفع به مما يسمونه التلفون واللاسلكي والميكروفون والراديو فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الاله عن أن يوحى الى عباده ما شاء عن طريق الملك أو غير الملك؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً •

أما الدليل الثالث : فقد قال فيه : استطاع العلماء أيضاً أن يملأ بعض الاسطوانات من الجمد الجامد الجاهل بأصوات وأنغام على وجه يجعل حاكبه له بدقة واتقان كما هو (بالفونوغراف) •

وأخيراً فقد استدل بالدليل الرابع ودخل في عالم الحيوان فقال : اننا نشاهد بعض الحيوانات الدنيا تأتي بعجائب بعض الأنظمة والأعمال ثم يقول : اذا صح هذا في عالم الحيوان فهو يكون آتم من ذلك ما يكون بطريق الوحي ويضرب لك المثل بالحيوان الذي اسمه «أكسيكلوب» (١٧) •

وهكذا استرسل صاحب المناهل في ذكر الدليل تلو الدليل وأراد أن يدل على صحة رأيه ووجهته بقوله : انه قد رأى هذه التجارب بعينه وسمعها بأذنه فهذا الأمر محسوس ملموس ثم انه قد حصل عليها أجماع من المثقفين وكأنه يرى في اجماع أمثال هؤلاء المثقفين كما هو الشأن في اجماع المجتهدين فالمثقفين علمياً كالمجتهدين فقهياً فما يقرونه حجة متبعة كما هو الشأن في الاجماع الشرعي وهو يزيد أدلته اثباتاً • ان حادثة التنويم المغناطيسي لم تجر في ناد أو كازينو ولا في أي مكان لا في أمريكا ولا في أوروبا بل جرت في مكان له أهميته الدينية وهو نادى جمعية الشبان المسلمين في مصر وسبحان من جعلها مكاناً للتنويم المغناطيسي وكان المسلمين بحاجة الى مثل هذا التنويم أنهم نائمون منذ زمن بعيد وكأنه يرى أن القرار قد خرج من المختبر ليثبت نجاح تجربة الوحي ، ومما زاد الطين بلة تدليله على ظاهرة الوحي وتقريب وقوعها الى الأذهان بالتليفون واللاسلكي وهذا التدليل بعيد عن نهج هذا الدين

١٧- مناهل العرفان ، ج ١ ص ٦١ و ٦٢ هذا القياس أكثر فساداً وأبعد من القياس السابق ، فالسابق بين ملك ونبي والانسان المنوم والمنوم أما هنا فقياس مع حيوان الاكلسيكلوب •

فان محمداً عليه الصلاة والسلام ما أقنع أهل زمنه الا بما أرشده الله اليه
أما أن يلتبس لكل حادثة غيبية دليلاً حسيماً أو يدل على وقوعها أو يقربها
الى الذهن بأدلة مادية محسوسة فهذا ما لم يكن بل حصل العكس فان
أبا بكر الصديق حين حدثه كفار قريش بقصة الاسراء والمعراج وأرادوا
أن يشككوه في هذه القضايا الغيبية لم يفلحوا في ذلك وأخذوا منه الجواب
الشافى النابع من الايمان الصادق قال : ان قالها أي محمد ﷺ فقد صدق .

ان هذه الاقوال ليست مستحدثة فقد قال آخرون من قبلهم مثل
قولهم فهناك الشيخ محمد عبده الذي فسر قوله تعالى : « وأرسل عليهم
طيراً اباييل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ماكول » .
قال : ليقرب هذه المعاني القرآنية للعقول الأوروبية أن الطير اباييل
الذباب وفسر (حجارة من سجيل) بميكروب الجديري ، كما فسر (الجن)
بالميكروب الضار والملائكة بالميكروب النافع . وهذا تفسير غريب وتأويل
بعيد وقد رد عليه صاحب الظلال بكلام مفيد يحسن الرجوع اليه .
وقد أعجبني الرد على ادعاء اثبات الوحي بالتنويم وهل نقف أمام من صعب
عليه تصور الوحي ولم يجد بداً من التصديق بالايعاء الذي يتم أمامه عن
طريق التنويم المغناطيسي الذي ربما كان هو موضوعه في مرة من المرات؟ .
وهل نحن بحاجة الى ضرب الأمثلة والشواهد من عالم البشر ، المادي
والمحسوس على شرح حقيقة الوحي ، وبيان امكانية وقوعه . ان الأمر هنا
ليجلب عن هذا وذاك ، والقرآن الذي نتلوه الآن شاهد صدق على مصدره
كما أن الأدلة على صدق هذه الظاهرة أكثر من أن تحصى (١٨) وقول القائل:
(وحاولنا ألا نقرب حقائق الغيب العليا بما يعرفه الناس عن التنويم
المغناطيسي وتسجيل الأصوات على الأشرطة وإذاعتها أو نقلها عن طريق
الهاتف واللاسلكي وظننا أن لا جدوى من هذه الأشياء وانها ليست هي
طريق الايمان) (١٩) .

١٨- دراسات قرآنية للدكتور عدنان زرزور ، ص ٥٩ ، الناشر دار
الفتح بدمشق .

١٩- مباحث في علوم القرآن ، ص ٤٧ و ٤٨ .

المبحث الثالث

حالات الوحي

لو أمعنا النظر في هذا النص القرآني: « وما كان لبشر أن يكلمه الله
وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء » (٢٠)
لوجدنا أن حالات الوحي لا تخرج عن ثلاث حالات ولنتناول كل حالة على
حدة بالبيان والتوضيح :

أما الحالة الأولى : (ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً) فيتلقى
النبي ﷺ كلام الله عن طريق الإلهام في حالة يقظته فيلقى الوحي في روع
الرسول ﷺ فيعيه كما ورد في الحديث الشريف : (أن روح القدس نفث
في روعي أن لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في
الطلب) (٢١) ومن صور هذه الحالة أن يرى الرسول ﷺ الرؤيا في منامه
كما أخبرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (أول ما بدىء به رسول الله
من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى الرؤيا الا جاءت مثل
فلق الصبح) (٢٢) .

الحالة الثانية : (أو من وراء حجاب) فيكلم الله تعالى الرسول
من وراء حجاب وهذا ثابت لموسى عليه السلام « وكلم الله موسى تكليماً » (٢٣)
فقد كلمه الله من وراء الشجرة : « فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن
في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين » (٢٤)
وفي سورة طه : « فلما أتاها نودي يا موسى اني أنا ربك فأخلع نعليك
انك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » ومثل هذه

-
- ٢٠- سورة الشورى آية ٥١ .
 - ٢١- رواه البخاري ومسلم .
 - ٢٢- رواه البخاري ومسلم .
 - ٢٣- سورة النساء آية ١٦٤ .
 - ٢٤- سورة القصص آية ٣٠ .

الحالة لم تحصل لرسول الله ﷺ إلا مرة واحدة ، أشارت إليها آيات سورة النجم : « علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى » (٢٥) .

الحالة الثالثة : قوله تعالى : «أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء» . وهذه أشهر الحالات أو أكثرها وقوعاً فيرسل الله تعالى جبريل عليه السلام : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » وقد ذكرت السنة النبوية صور هذه الحالة فأشدها على النبي ﷺ أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس فيفصم عنه وقد وعى ما قال ، قال عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً وقد وصفت آيات المزمّل ذلك : « أنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » فإذا ما نزل عليه الوحي وكان راكباً بركت به ناقته إلى الأرض وقد جاءه الوحي مرة وفخذه صلى الله عليه وسلم على فخذه زيد فتقلت عليه حتى كادت ترصها (٢٦) .

ومن صورها - أيضاً - ما روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ حين جاءه الوحي وهو في غار حراء ، قالت : فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » (٢٧) . رواه البخاري .

وأهون صور الوحي أن يأتيه جبريل عليه السلام بصورة رجل كما أخبر النبي ﷺ ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول . زاد أبو عوانه وهو أهون عليه .

٢٥- سورة النجم من ٥ - ١٠ .

٢٦- انظر صحيح البخاري باب كيف كان بدء الوحي .

٢٧- سورة العلق الآيات من ١-٥ .

وقد روى عمر بن الخطاب نزول جبريل بهيئة رجل ، فعنه رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبي ﷺ وأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرني عن الاسلام . فقال رسول الله ﷺ الى أن قال عمر بن الخطاب بعد أن فرغ من الأسئلة وسماع الأجوبة قال عمر : ثم انطلق ، فلبثت ملياً ، ثم قال صلى الله عليه وسلم يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله . ورسوله أعلم ، قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم (٢٨) .

وبهذا يتضح لنا أن الحالات وصورها التي كان يوحى بها الله الى رسول الله ﷺ وهي ثلاثة لا رابع لها على ضوء البحث والاطلاع والله أعلم .

فإنه لا يخلو من بعض الأخطاء التي لا بد من تصحيحها، كما أن بعض الأجزاء قد تحتاج إلى مزيد من التوضيح والشرح، خاصة في تلك الأجزاء التي تتناول المسائل العلمية والفلسفية، والتي قد يكون من الصعب على القارئ العادي فهمها دون مساعدة من المؤلف أو من غيره من المتخصصين في هذا المجال.

ومع ذلك، فإن هذا الكتاب يعدُّ إضافةً قيمةً إلى المكتبة العربية، خاصةً في ظلِّ الحاجة الماسة إلى الدراسات والبحوث التي تتناول المسائل الفلسفية والعلمية، والتي تساعد على فهم الواقع وتغييره.

الباب الثاني نزول القرآن

الفصل الأول

بدء النزول ونهايته

المعروف أن القرآن الكريم قد نزل على النبي ﷺ بمدى ثلاث وعشرين سنة ، وقد ذكر الله حكمة نزوله مفرقا . قال تعالى : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** » (١) . وفي سورة الفرقان قال تعالى : « **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به قؤادك ورتلناه تریلا** » (٢) .

لقد أجاب الله عز وجل هؤلاء المشركين بأن في تفريق نزول القرآن تقوية لقلب الرسول ﷺ فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه . وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز فيحدث له من السور ما تقصر عنه العبارة ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه لجبريل (٣) .

وربما يتوهم أن ما قلناه متعارض مع قوله تعالى : « **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** » (٤) . إذ يخبر الله تعالى بأن القرآن كله قد نزل دفعة واحدة في شهر رمضان ، بل أن هناك آية تشير الى نزوله في ليلة واحدة قال تعالى : « **أنا أنزلناه في ليلة مباركة** » وبالتحديد في ليلة القدر قال تعالى : « **أنا أنزلناه في ليلة القدر** » وبالتحديد أدق رواه الامام أحمد والبيهقي عن وائلة بن الأصقع عن النبي ﷺ أنه قال : (**نزلت صحف ابراهيم أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين منه ، والانجيل لثلاث عشرة ، والزبور لثمانى عشرة ، والقرآن لأربع وعشرين**) (٥) .

-
- ١ - سورة الاسراء آية ١٠٦ .
 - ٢ - الآيات ٣٢ و ٣٣ من سورة الفرقان .
 - ٣ - الادقان في علوم القرآن للسيوطي ٧١/١ .
 - ٤ - سورة البقرة آية ١٨٥ .
 - ٥ - فتح الباري ٣/٩ .

وقد رد على هذا التعارض بما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس أنه قال : (أنزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ثم قرأ : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** » • فهذا يدل على أن القرآن قد نزل دفعة واحدة ولكن الشطر الثاني من الحديث يدل على نزوله منجماً كما دلت عليه الآيات السابقة ، فبذلك يتم الجمع بين ما أوهم التعارض ، فنزول القرآن قد كان على نوعين :

الأول : نزوله من بيت العزة الى السماء الدنيا وهذا حصل دفعة واحدة •
الثاني : نزوله منجماً على النبي ﷺ اذ نزل به الوحي في مدى ثلاث وعشرين سنة •

وبهذا أزيل اللبس والوهم • ومن العلماء من قال : (ان الله تعالى قد عبر في كتابه - عن نزول التوراة والانجيل (بأنزل) وعبر عن القرآن (بنزل) وهذا ما يشير الى الفرق بين النزولين ، فالتوراة والانجيل قد أنزلتا دفعة واحدة ، والقرآن قد نزل منجماً ، وما عبر عن القرآن فانما هو نزوله الأول الذي كان دفعة واحدة من بيت العزة الى السماء الدنيا وفي جميع هذه الأقوال نظر :

١ - ان قضية نزول القرآن من بيت العزة هي من الامور الغيبية التي لا يصح أن يقال فيها بالرأي بل لا بد من ورود الشرع بذلك ، وهذا لم يحصل • أما قول ابن عباس فانه لم يرفعه الى النبي ﷺ حتى يكون حديثاً • وأما حديث واثلة بن الأصقع فانه لم يتحدث عن نزول القرآن من بيت العزة الى السماء الدنيا ، وانما أشار الى بدء النزول في الرابع والعشرين من رمضان ، وعلى ان هذا الحديث متعارض بأحاديث أصح منه في هذا الباب وذلك بما رواه البخاري ومسلم والامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان) فليس في هذا الحديث تحديد بليلة القدر ، وجمهور العلماء على أن ليلة القدر غير معينة بليلة محددة بل مبهمة وفي إبهامها وعدم تعيينها خير كثير والله أعلم •

٢ - ان اسم القرآن يطلق على بعضه كما يطلق على جميعه . فالآية قرآن والآيات قرآن والسورة قرآن وكل السور قرآن ، لذا فلا يصح الاستدلال بأن القرآن كله قد نزل في رمضان بل الدليل قائم على بدء نزول القرآن في رمضان .

٣ - ان التفريق بين مدلول كلمة (أنزل) و (نزل) وان الأولى تدل على نزوله دفعة واحدة والثانية تدل على نزوله منجماً أمر لا يستند الى دليل ، وليس في اللغة ما يساعد عليه وحيث أن القرآن قد نزل منجماً فلنتعرف على بدء النزول ونهايته بما صح عندنا من الآثار .

نقول : قد ثبت في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (أول ما بدىء به الرسول ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حيب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حرام يتحنث (٦) فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع أهله ، ويتزود لذلك ، ثم رجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني وغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد . الحديث . وذهب بعض العلماء الى أن سورة المدثر هي أول ما نزل وذلك لما روي عن أبي سلمة رضي الله عنه أنه قال : سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل ؟ قال : يا أيها المدثر . قالت : أو اقرأ . قال جابر : أحدثكم ما حدثكم رسول الله ﷺ قال : (جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء يعني جبريل عليه السلام فأخذتني رجفة شديدة فأتيت خديجة ، فقلت : دثروني فدثروني فصبوا علي ماء فانزل الله عز وجل : « يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فأصبر » ونحن لو تأملنا الحديث وأمعنا النظر فيه لوجدنا ان سورة المدثر ليست

٦ - التحنث : المراد به التعبد وأصله ترك الحنث وهذه الصيغة تدل على التجنب والتنحي عن مصادرها ونظيره التجهد والتحرج .

أول ما نزل ، تأمل قوله : (ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء يعنى جبريل فأخذتني رجفة) فهذا يدلنا على أن هذه هي المرة الثانية التي نزل بها جبريل لأنه قد عرفه لسابقة قد حصلت معه وهناك رواية أكثر جلاء قد رواها مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله يتحدث فيها عن فترة الوحي وانقطاعه ثم فترة الوحي فترة فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض ، قال رسول الله ﷺ : فجننت (فذعرت وخفت) منه فرقاً ، فرجعت وقلت زملوني زملوني فذثروني فأنزل الله يا أيها المدثر ، فهذه الرواية تدل على أن سورة المدثر هي أول ما نزل ولكن بعد فترة الوحي وانقطاعه .

والروايات السابقة تدل على أن سورة العلق أول ما نزل على الإطلاق .
وعلى أية حال فسورة المدثر من أوائل ما نزل وليست أول ما نزل .

هذه بداية نزول الوحي فقد وقع ذلك في شهر رمضان المبارك وبعد ذلك استمر نزول الآيات حتى وفاة النبي ﷺ وكان الآيات تنزل في أوقات وأماكن مختلفة تنزل الآية أو بعضها أو الآيات وأحياناً سورة كاملة وأحياناً تنزل الآيات بسبب أو بغير سبب ، تنزل ليلاً أو نهاراً ، صيفاً أو شتاءً ، بالسهل أو بالجبل ، تنزل الآيات عند الحاجة وقد ينقطع الوحي ، والرسول إليه بحاجة ، وفي كلا الحالتين خير .

لقد استمر الوحي بالنزول حتى نزلت آخر آية والتي اختلف العلماء في تعيينها والذي اشتهر على السنة العامة أن آخر القرآن نزولاً قوله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » وهذا خطأ مشهور تناقله الناس بالقبول ومما أعان على شيوعه هو ما تتحدث عنه هذه الآية والذي يفهم منها إذا لم يحط الانسان بموضوع نزولها جيداً - أن كمال الدين وتمامه لا يكون الا بتمام نزول القرآن وهذا القول يبدو منطقياً لولا ورود الأثر المفسر لنا معناها والمبين لنا ملاسبات وظروف الآية لولا ورود أثر على خلاف ذلك .

لذا فان هذا القول لم يكن مقبولاً عند العلماء المحققين حتى ان الزركشي عدد بضع روايات في آخر ما نزل كما بلغ بها بعضهم الى عشرة أقوال ، ليس من بينها كلها آية سورة المائدة التي اشتهرت عند بعضهم أخذاً من موضوعها ، وهي قوله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم .. الآية » . وذلك لأن هذه الآية نزلت في يوم عرفة من حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة ، وقد عاش النبي ﷺ بعدها واحداً وثمانين يوماً .

★ لقد دحض الطبري هذا بأن المراد بهذه الآية ليس هو اكمال الدين واتمام الأحكام والتشريع ، وانما المراد أن الله سبحانه قد أكمل هذا الدين بأفراد المسلمين بالبلد الحرام والحج الى البيت الحرام بعد اجلاء المشركين وقد تم ذلك قبل حجة الوداع .

فالآية تمتن على المؤمنين بهذه النعمة وقد تليت على الحجاج في حجة الوداع .

أما الآثار الواردة على خلاف هذه الرواية فما رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : ان الله تابع على رسوله ﷺ قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي (٧) وقال ابن حجر في شرحه للحديث : (ان الزهري قد سأل أنس بن مالك : هل فتر الوحي عن النبي ﷺ قبل أن يموت ؟ فأجابه بما سبق ، فلو انقطع الوحي بضماً وثمانين يوماً لم يكن هذا القول صحيحاً وبهذا يبطل هذا القول) .

★ لقد رجح أحد العلماء المعاصرين أن آخر الآيات نزولاً قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٨) . واستدل على ذلك بما روي عن أبي بن كعب أنه قال : (انهم جمعوا القرآن في خلافة أبي بكر وكان رجال يكتبون ، فلما انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » . ظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن ، فقال له أبي بن كعب : ان رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى قوله (وهو رب العرش العظيم) وقال : هذا آخر ما نزل من القرآن .

٧ - انظر صحيح البخاري ٦/٩ وشرح فتح الباري صفحة ٦ .

٨ - سورة التوبة آية ١٢٨ .

ثم استدل أيضاً بأن الظروف أو الملابس تؤيد ذلك فان هاتين الآيتين لو لم تكونا قد نزلتا قبيل وفاة رسول الله ﷺ لاشتهر أمرهما ولم يغيب عن أحد من المنتسبين لآيات القرآن من الصحابة شأنهما ، ولكن ذلك كان لأنهما نزلتا في وقت لم يتسع لانتشارهما ، ولا يكون هذا غالباً إلا اذا كانتا قد نزلتا قبيل وفاة الرسول ﷺ وانشغال الصحابة بوفاة ﷺ . ألسنت أدري بقوله هذا ما يجعل الرأي سليماً ، وليس في هذا ما يدل على أن هذه الآية هي آخر ما نزل .

وهذا الاستنتاج لم يحالفه الصواب وهو معارض بما هو أصح منه . وقد رده القرطبي بعد أن أورد الآية التي سير ذكرها وقال : أنها أعرف وأكثر وأصح وأشهر (٩) . فدعوى أن آية « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » من آخر ما نزل معارض بما هو أوثق منها وذلك لأن الذي رواه الحاكم وابن مردويه فلا تقوى على معارضة رواية البخاري على أنه يمكن نقضها بأنها آخر ما نزل من المائة وليس آخر ما نزل على الإطلاق .

★ أورد السيوطي ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن آخر آية نزلت : « واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وعنه أيضاً أن آخر آية انزلت : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين » وعن سعيد بن المسيب أن آخر آية نزلت هي آية الدين أي « اذا تداينتم بدين » فقد وصفها بأنها أحدث القرآن عهداً بالعرش . وقد جمع السيوطي بين هذه الأقوال فقال : ان هذه الآيات قد نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصاحف لأنها في قصة واحدة فأخبر كل عن بعض ما نزل بانه آخر ، وان كان الراجح أن آخر ما نزل باطلاق هو قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله . . . الآية » لأن بعض الروايات تنص على أن النبي ﷺ توفي بعد نزول هذه الآية بتسع ليال فقط . ومما يرجح هذا الرأي الروايات السابقة التي تدل على تتابع الوحي قبل وفاته صلى الله عليه وسلم والزعم بانقطاع الوحي فترة ثلاثة أشهر تقريباً مناقض لما صح ، والقول بانقطاعه قبل تسع من وفاته قريب تعضده روايات التتابع وأما القول بانقطاعه أشهراً فبعيد تصححه روايات التتابع بل يبطله التفسير المأثور عن الصحابة والسلف الصالح .

٩ - تفسير القرطبي ٣/٣٩٦ ط دار الكتب المصرية .

الفصل الثاني

أسباب النزول

لمحة تاريخية :

يعتبر شيخ البخاري علي بن المديني أول من دون كتاباً في هذا العلم وقد تلاه علماء آخرون من أشهرهم أبي الحسن عاي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ . وكتابه من خير الكتب المصنفة في هذا الفن رغم ما فيه من اعواز واخطاء تاريخية ظاهرة تبدو للباحث بأدنى تأمل وكما انه لم يخل من ذكر أسباب مبالغ فيها .

وقد جاء بعده الجعبري وأختصر كتابه فحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئاً وتحديث في مقدمته قائلاً : نزول القرآن على قسمين : قسم نزل ابتداء وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال ثم أخذ يذكر ما ذكره الواحدي مجرداً من الأسانيد وبذلك لم يضيف جديداً في هذا المجال .

وممن ألف فيه أبو الفرج - ابن الجوزي - المتوفى سنة ٥٩٧هـ وكتابه أسباب نزول القرآن . وكذلك ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣هـ وكتابه (العجائب في بيان الأسباب) ذكر السيوطي أن كتابه مات عنه مسودة فلم نقف على مسودته ويبدو أن السيوطي قد اطلع عليها ولكنه لم يذكر شيئاً عنها حين ألف كتابه المشهور (لباب النقول في أسباب النزول) والذي قال عنه : انني ألفت فيه - أي في أسباب النزول - كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله في هذا النوع سميته (لباب النقول) ذكره صاحب الاتقان .

لقد أثنى السيوطي بشيء من المبالغة على كتابه في حين ان كتاب الواحدي خير منه بل خير الكتب المصنفة في هذا الفن فزعم السيوطي باطل لأن الواحدي قد فاقه وسبقه في هذا الميدان على الرغم من استفادة السيوطي من كتابه وكان الأولى به أن يجمع مزاياه ويكمل ما رآه ناقصاً ويسد ما فيه من اعواز كما قال :

المراد من أسباب النزول وطريقة معرفته :

من المعلوم أن من الآيات ما نزل ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب فمنها ما نزل يذكر قصة للاعتبار أو يصف مشهداً من مشاهد اليوم الآخر أو يحدث عن أمم غابرة خلت أو يتقص علينا حواراً بين الأنبياء وأقوامهم وغير ذلك .

وقسم من الآيات قد نزل عتب واقعة أو سؤال أو سبب من الأسباب وهذا القسم مقيد بنزول الآية أيام وقوع الحدث أو السؤال وهذا ما يطلق عليه بحق سبب النزول مثال ذلك : ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم : لو سألتموه فقالوا : حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال : « قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » فحتى تكون الحادثة سبباً لا بد من وقوعها ثم نزول آية من أجل ذلك كما سبق .

أما قول الصحابي أو التابعي - نقلًا عن الصحابي - نزلت هذه الآية في كذا فقد لا يكون المراد به السبب الحقيقي في نزول الآية بل قد يكون المراد أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع فلا يكون قوله هذا نصاً في سبب النزول .

أما طريقة معرفة سبب النزول : فما قاله الواحدي انه لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها (١) فاذا قال الصحابي الذي عايش الوحي ونزوله ان الآية قد نزلت في الحادثة الفلانية فانه حديث مسند فاذا كان السند متصلًا وصحيحًا وجب الأخذ به لأن هذا مما لا يقال فيه بالرأي وكذلك قول التابعي اذا نقل أو سمع الصحابي . أما قولهم بالاجتهاد فلا يصح قال ابن سيرين : سألت عبيدة عن أي آية من القرآن فقال : اتق الله وقل سداداً ذهب الذين يعلمون فيما أنزل من القرآن (٢) .

١ - وقع في الاتقان علمها ولعله خطأ .
٢ - الاتقان جزء ١ ص ٣١ .

فأدته :

- ١ - معرفة الحكمة الباعثة على تشريع الحكم .
- ٢ - تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب .
- ٣ - أن اللفظ قد يكون عاما ويقوم الدليل على تخصيصه فإذا عرف السبب قصر العام على الخاص .
- ٤ - الوقوف على المعنى وإزالة الأشكال .

قال الواحدي : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها (٣) فمما لا شك فيه أن بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن كما قال ابن تيمية أن معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب . وقد أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » (٤) .

قال : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكنموه إياه وأخبروه وأروه أنهم أخبروا بما سألهم عنه وأستحمدوا بذلك إليه وحكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان الخمر مباح ويحتجان بقوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » ولو علما سبب نزولها لم يقولوا ذلك وهو أن أناساً قالوا لما حرمت الخمر كيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس ؟ فنزلت . أخرجه أحمد والنسائي . ومن ذلك قوله تعالى : « واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم أن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر » فقد أشكل معنى هذا الشرط على بعض الأئمة حتى قال الظاهري : بأن الآية لا عدة لها إذا لم ترتب وقد بين ذلك سبب النزول وهو وأنه لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد النساء ، قالوا : قد بقي عدد

٣ - الاتقان جزء ١ ص ٢٨ .

٤ - سورة آل عمران آية ١٨٨ .

من عدد النساء لم يذكرن الصغار والكبار فنزلت • أخرجه الحاكم عن أبي ابن كعب • فعلم بذلك أن الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن في العدة وارتاب هل عليهن عدة أو لا ؟ وهل عدتهن كآلاتي في سورة البقرة أم لا ؟ ومعنى ذلك ان ارتبتم ان أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدون فهذا حكمهن • ومن ذلك قوله تعالى : « **فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا فُتْمَ وَجْهِ اللَّهِ** » فانا لو تركنا ومدلول اللفظ لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سافراً ولا حضراً وهو خلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ وخلاف الاجماع من بعده ، فلما عرف سبب نزولها علم أنها في نافلة السفر أو فيمن صلي بالاجتهاد وبان له الخطأ على اختلاف الروايات في ذلك •

ومن ذلك قوله تعالى : « **ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما** » • فان ظاهر لفظها لا يقتضي ان السعي فرض وقد ذهب بعضهم الى عدم فرضيته تمسكاً بذلك وقد ردت عائشة على عروة فهمة في ذلك بسبب نزولها وهو ان الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية فنزلت • هذه أمثلة واضحة في مدى فائدة معرفة أسباب النزول وانه لولا ذكر السبب لما استقام فهم ، ولما بان شكل •

حالات أسباب النزول :

تعدد الأسباب للآية أو الآيات : قد ذكر العلماء سورتين بهذه الحالة فاذا تعددت الروايات في سبب نزول الآية كأن يروي راو أنها نزلت في فلان ويروي آخر بأنها نزلت في فلان وينظر فان اتحدت الروايتان في المعنى ولم تكونا متباعدتين زمنياً وكانتا في درجة من الصحة فلا يمنع أن تكون كل منهما سبباً في النزول مثله ما جاء في سبب نزول قوله تعالى : « **والذين يرمون أزواجهن ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم** » • الآية • فقد روى البخاري عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء • وقال النبي ﷺ : (البيينة أو حد في ظهرك) وقال هلال : يا رسول الله اذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيينة ؟ فأنزل الله الآية •

وروى البخاري أيضاً عن عويمر العجلاني مثل هذه الرواية سبباً
 بنزول نفس الآيات فالقول في مثل هذه الحالة ان هذه الآيات قد نزلت
 بعد حصول هذه الحوادث فكلها سبب لنزول الآية ويجمع بين الروايتين
 بان أول من وقع ذلك لهلال وصادف مجيء عويمر فنزلت فيهما معاً والى
 هذا جنح النووي وسبقه الخطيب فقال : لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت
 واحد ولا مانع من تعدد الأسباب كما ذكر ابن حجر .

والصورة الثانية ما اذا صحت الروايات واتحدت في المعنى ولكن
 علمنا بتباعدهما الزمني ، فهذا محمول على تعدد النزول وتكرره ، مثال
 على ذلك ما أخرجه البيهقي والبخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف
 على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال : (لأمثلن بسبعين منهم
 مكانك) فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف ، بخواتيم سورة النحل :
 « **وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به** » . وأخرج الترمذي والحاكم
 عن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة
 وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا به ، فقال : لئن أصبنا
 منهم يوماً مثل هذا لردنه عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله :
 « **وان عاقبتهم فعاقبوا** » الآية . فظاهر هذه الرواية ان هذه الآية قد نزلت
 يوم الفتح وفي الرواية التي قبلها : نزلت بأحد فيحمل ذلك أنها نزلت بأحد
 ثم نزلت يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده .

ومثاله : ما أخرجه الشيخان عن سعيد بن مسيب قال : لما حضر
 أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن
 أبي أمية فقال : أي عم قل لا اله الا الله أحاج لك بها عند الله ؟ فقال
 أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزلوا
 يكلمانه حتى قال : لا هو على ملة عبد المطلب . فقال النبي ﷺ :
 (لاستغفرون لك ما لم أنه عنه) فنزلت : « **ما كان للنبي والذين آمنوا أن
 يستغفروا للمشركين** » .

وأخرج الترمذي وحسنه عن علي قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه
 وهما مشركان . فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : استغفر
 إبراهيم لأبيه وهو مشرك . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت الآية
 فجمع بين هذه الأحاديث تعدد النزول فالأسباب متعددة والنازل واحد .

ويرفض بعض العلماء هذا الجمع بين الروايات الأخيرة المختلفة وبأن سبب النزول قد تكرر فيقول : والذي يظهر لي أن الجمع بتعدد الأسباب ممكن إذ يجوز أن نزول هذه الآية كان بعد آخر حادثة من هذه الحوادث على نحو ما ذكر سابقاً لأنه لم يوجد في شيء من روايات تلك الآثار ما يعرفنا التباعد بين الحوادث ، أما أنها قد نزلت مرة بعد كل حادثة فاني أسبعد ، لأن الآية صريحة في النهي عن الاستغفار للمشركين كيفما كانوا وكيفما كانت صلتهم للمستغفر ، فكيف يستساغ أن الرسول صلوات الله عليه يفضل عن هذا النهي القاطع البات بعد الاستغفار لعمه أو أمه فيقول إليه (لاحدهما) بعد الحادثة الأولى التي نزلت فيها الآية ؟ .

فالحق في نظري أن الجمع في مثل هذه الصورة بالمسلك الذي سلكه العلماء غير مفهوم ، والذي أراه أن القاعدة ثابتة عند العلماء ، ولكن الأمثلة الأخيرة في استغفار النبي ﷺ لعمه وفي استغفار المؤمنين لأقاربهم أمثلة فيها نظر إذ أنها ليست في درجة واحدة من الصحة ، بل أنها متفاوتة قوة وضعفاً وهنا لنا مسلك آخر نعرضه فيما يلي :

١ - انه إذا اختلفت الروايات وكانت كل رواية تدل على سبب لنزول الآية تختلف عن الرواية الأخرى مثاله ما أخرج الشيخان وغيرها عن جناب اشتكى النبي ﷺ فلم يكن ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك الا قد تركك ، فانزل الله : « **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى** » .

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبه عن حفص عن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادمة رسول الله ﷺ (أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال : يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ ؟ جبريل لا يأتيني) فقلت : في نفسي لو هيات البيت وكنته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت جرواً ، فجاء النبي ﷺ ترتعد لحيته وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة فانزل الله : « **والضحى والليل إذا سجى** » . فالرواية الأولى صحيحة ، والثانية ضعيفة فنعتمد الأولى ونذر الأخيرة لضعفها . قال ابن حجر : في شرح البخاري قصة إبطاء جبريل بسبب

الجرو مشهورة ولكن كونها سبب نزول الآية غريب . وفي اسناده من لا يعرف . فالعتمد ما في الصحيح .

٢ - اذا تعارض سبب النزول بنص آخر أقوى منه يرد سبب النزول مثلما روي عن أن سبب نزول آية : « الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » ، قال الامام أحمد في مناسبة نزول هذه الآية : حدثنا عارم حدثنا معتمر بن سليمان قال : قال أبي حدثنا الحضرمي عن القاسم بن محمد عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزول ، كانت تسافح وتشتترط له أن تنفق عليه قال : فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها ، فقال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ الآية .

وقال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا روح ابن عبادة عن عبد الله بن الأحنس ، أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد ، وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة ، قال : وكانت امرأة بغية يقال لها عناق وكانت صديقة له ، وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله قال : فجننت حتى انتهت الى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة ، قال : فجاءت عناق ، فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت اليه عرفتني فقالت : مرثد؟ فقلت مرثد فقالت : مرحباً وأهلاً هلم فبت عندنا الليلة قال : فقلت : يا عناق حرم الله الزني . . . فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله أنكح عناقاً - أنكح عناقاً مرتين . فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت الآية : « الزاني لا ينكح الا زانية » فقال رسول الله ﷺ يا مرثد : الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة فلا تنكحها .

فان هاتين الروايتين تتعارضان مع الآيات القطعية الدلالة التغطية انثبوت وهي قوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وقال تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » وقال تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » وقال تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم » والايامي غير المتزوجين سواء اكانوا صالحين أم طالحين ، وسواء اكانوا زناة أم عفيفين .

وعليه فيعتبر ما ورد أنه سبب نزول غير مقبول للتعارض السابق .
وتوجه مناسبة النزول هذه بأنها واقعة حال ونهي الرسول ﷺ يوجه على
الأفضلية أن لا تزوج من البغايا وليس على سبيل التحريم كما قال صلى الله
عليه وسلم : (تزوجوا الودود الودود) والزواج من الودود الودود خير
من الزواج من الشيب وهكذا . . فلا يؤخذ بهاتين الروايتين على أنهما
أسباب للنزول ولكن تؤخذ على اعتبار أنها واقعات حال ينطبق عليهما
الدليل : « الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة » .

٣ - اذا تعددت حوادث أسباب النزول ، وتغاير التاريخ فالحادثة
الأسبق تاريخياً هي سبب النزول والباقي تعتبر واقعات حال ينطبق
عليها حكم الآية .

وإذا تعددت حوادث أسباب النزول ولم يعرف التقدم والتأخر
فحادثة واحدة هي سبب النزول والباقي بعد واقعة حال تنطبق عليها
الآية . ولما كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فليس من
الفائدة التدقيق في الحادثة التي تعتبر سبباً للنزول هل هي الحادثة
كذا أم تلك ما دام الموضوع متحداً ؟ . مثل ما روي أنه مناسبة نزول آية :
« الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة » فورد أنها نزلت في أم مهزول وقيل
انها نزلت في عناق ومرثد . فلا يختلف الأمر في اعتماد أي الروايتين
انها سبب نزول سيما ان الموضوع واحد (هذا على فرض صحة اعتبارهما
أسباب النزول) .

٤ - اذا تعدد الاشخاص الذين نزلت فيهم فيؤخذ بها على اعتبار
أن الجميع تزامنوا في الاشتراك بالفعل كآية الأفك نزلت في مسطح بن
أنانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ورأس المنافقين عبد الله بن
أبي بن سلول . فأى رواية صحيحة تقول ان آية الآية نزلت في مسطح
أو في حسان أو في حمنة أو عبد الله بن أبي بن سلول أو في غيرهم فيؤخذ
بجميع الروايات الصحيحة ولو بلغ الاشخاص مائة شخص ما دامت
الروايات صحيحة ، ولترجيح احتمال تزامن هؤلاء في القيام بالفعل وهو
اتهم عائشة أم المؤمنين بالزنا ، ولأن هذه الروايات لا تعارض نصاً أقوى
منها بالاضافة الى اتحاد الموضوع .

أما احتمال أن يكون النص نزل مرتين فلا يؤخذ به إلا إذا ورد دليل أن الآية نزلت مرتين ولا يجوز الحكم على الآية أنها نزلت مرتين لوجود حادثتين متباعدتين زمنياً وإن كانت في نفس الموضوع بل تؤخذ على أن أحدهما مناسبة نزول والثانية واقعة حال تنطبق عليها الآية .

هذا موجز لكيفية معرفة سبب نزول الآية ، والدراسة والمطابقة والتدقيق هي التي تساعد على المعرفة بالإضافة إلى القواعد السابقة .

الفصل الثالث

نزول القرآن على سبعة أحرف

هذا بحث شائك وشائق كما وصفه أحد العلماء ونظراً لذلك فقد استشكله ابن الجزري وبقي يمعن النظر في الأحاديث الواردة فيه أكثر من نيف وثلاثين عاماً حتى فتح الله عليه بما يمكن أن يكون صواباً فيبقى في حيز الامكان ولم يزعم الجزم واليقين كيف لا وقد وصلت أقوال العلماء في هذا البحث الى أربعين قولاً كما رواها السيوطي ونقل أكثرها عن الطبري ، ونحن سنبدل جهدنا لتجلية الحقيقة والتي لا أزعج أنني بلغت فيها حد الرضا والاطمئنان التام ، أني سأدلو بدلوي وحسبي أني بذلت جهدي . أقول : أول ما نبدأ به معرفة معنى الحروف السبعة لغة .

الحرف لغة : هو الطرف والجانب وحرف السفينة والجبل جانبيهما والجمع أحرف وحروف وحرفة وقد قيل لأعلى الجبل حرف أيضاً ومنه قوله تعالى: « **ومن الناس من يعبد الله على حرف** » أي على طرف فهو غير وأسط فيه وهذا علامة على القلق وعدم الثبات فمعنى على حرف على شك قاله مجاهد وغيره وحقيقته أنه على ضعف في عبادته وكضعف القائم حرف مضطرب فيه فحرف كل شيء طرفه وشفيره وحده .

وقيل (على حرف) أي على وجه واحد وهو أن يعبد على السراء دون الضراء ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف وقيل على حرف هذا على شرط .

وكل كلمة تقرأ على الوجوه من القرآن تسمى حرفاً نقول هذا في حرف ابن مسعود أي في قراءة ابن مسعود ، قال ابن سيده : والحرف القراءة التي تقرأ على أوجه ، وما جاء في الحديث من قوله عليه السلام : (نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف) أراد بالحرف اللغة : قال أبو عبيد : نزل على سبع لغات من لغات العرب (١) .

١ - انظر لسان العرب لابن منظور والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج ١٢ ص ١٧ .

أما معنى السبعة لغة فقد قيل سبع للمؤنث وسبعة للمذكر من العدد فوق الستة ودون الثمانية تقول سبع نسوة وسبعة رجال وتلفظ السبعة بتحريك السين وتسكين الباء وحكى بعضهم بتحريك الباء في (السبعة) هذا أصل استعمالها الحقيقي وقد تستعمل مجازاً للكثرة في الآحاد .

المعنى الاصطلاحي : اختلفت أقوال العلماء فيه كثيراً وقبل الخوض في خلافاتهم نضع النصوص بين يديك حتى تكون على بينة من أمرك وسنكون في غنى عن ذكر الأقوال التي يظهر لك بطلانها بأدنى تأمل للحاديث الشريفة :

١ - روى البخاري ومسلم عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال : (أن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف . فقلت : أسأل الله معافاته ومغفرته وأن أمتي لا تطيق ذلك . ثم أتاني الثانية فقال : أن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ولم أزل أستعيده حتى قال : (أن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأبى حرف قرأوا فقد أصابوا) (٢) .

٢ - وروى الترمذي عن أبي بن كعب أيضاً قال : لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المروة قال : فقال رسول الله ﷺ لجبريل : اني بعثت الى أمة أميين فيهم الشيخ الفاني والعجوز الكبير والغلام ، قال : فمرهم يقرأوا القرآن على سبعة أحرف .

٣ - وروى البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت الى قراءته ، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ فكنت أساوره في الصلاة حتى سلم ، ثم لبثته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله . قلت له : كذبت ، فوالله أن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة على غير ما قرأت ، فانطلقت أقوده الى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، اني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأني سورة الفرقان ، فقال رسول الله ﷺ أرسله يا عمر ، اقرأ يا هشام ، فقرأ هذه القراءة

٢ - صحيح مسلم ، ج ٦ ص ١٠٣ المطبعة المصرية .

التي سمعته يقرأها ، (قال رسول الله ﷺ ، هكذا أنزلت) ثم قال رسول الله ﷺ لي : اقرأ ، فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت ، أن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) (فاقروا ما تيسر منه) وأحاديث أخرى كثيرة وردت عن جمع كبير من الصحابة حتى عدّه أبو عبيد القاسم بن سلام من المتواتر (٣) .

تحديد المدلول الاصطلاحي للأحرف السبعة :

اختلف العلماء أولاً في تحديد لفظ السبعة وهل المراد منها ذلك العدد المعروف الواقع بين الستة والثمانية أو المراد به الكثرة في الآحاد كما يراد من العدد سبعين الكثرة في العشرات والسبعمئة الكثرة في المئات ؟ .

فأرى في هذا المجال أن خير الآراء ما دونه أحد الباحثين في تحديد المراد من السبعة فقلت : قد كتب بحثاً كاملاً بعنوان : [كلمتان بين المفسرين والمحدثين وأهل اللغة] والمراد بالكلمتين السبعة والسبعون وخرج بنتيجة البحث وقال أننا نجد أن المعاجم اللغوية تلتقي على كلمة سواء فيما يختص بالسبعين والسبعمئة وهما : أنهما تكررتا في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف والعرب تضعها موقع التضعيف ولا تريد معناهما العددي في كثير من الأحيان لكن هذه المعاجم لا تلتقي على كلمة سواء فيما يختص بالسبعة (والسبع) رغم تكرارها في القرآن والحديث وكلام العرب (٤) .

ونحن إذا نظرنا إلى هذه الأحاديث وتمعنا نصوصها فإننا نجد أن المراد بالسبعة العدد الذي بين الستة والثمانية فالمراد حقيقة العدد على سبيل الحصر وليس المراد به الكثرة في الآحاد على سبيل التسهيل والسعة والتوسعة على الناس لأن التسهيل والسعة حاصلت في السبعة حصراً فإن الأحاديث صريحة في أن الرسول ﷺ قد استزاد جبريل حتى

٣ - أنظر فتح الباري ، الجزء ٩ ص ٢٠ ، المطبعة المصرية ، الاتقان ، الجزء ١ ص ٥٨ .

٤ - الدكتور المرحوم محي الدين خليل وبحثه : كلمتان بين المفسرين والمحدثين من أهل اللغة .

بلغ السبعة فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى أنتهي الى سبعة أحرف وعلى هذا فالأحرف سبعة على سبيل الحصر ، فالدعاوى الكثيرة الزاعمة بأن الأحرف أكثر من سبعة وراح يفسر لنا مراده من ذلك ، هذه الدعاوى سنكون في غنى عن ذكرها وبهذا يحسم الخلاف الأدنى القائم على حقيقة المراد بالعدد سبعة ، أما الخلاف حول مدلول كلمة الأحرف فهو طويل وقد احتدم فيه النقاش حتى أوصل السيوطي الأقوال الى أربعين كما قلنا وقد ذكر الغث والسمين . وأخذ المستشرقون هذه الأقوال ليصطادوا بها في الماء العكر ، وقبل الخوض في بعض الخلافات يجدر بنا أن نذكر الحقائق التي تفهم من الأحاديث التي أشرنا إليها سابقاً .

- ١ - أن المراد بالسبعة حقيقة العدد المحصور بين الستة والثمانية .
- ٢ - أن نزول القرآن على سبعة أحرف كان توسعة على الأمة في أميتها وتسهيلاً على الشيخ الفاني والعجوز الكبير والغلام .
- ٣ - أن اختلاف الصحابة فيما بينهم في قراءة القرآن لم يكن عن اجتهاد منهم وإنما كان عن اختلاف في سماعهم لما أنزل على الرسول ﷺ .
- ٤ - أن الرسول ﷺ كان يقر كل واحد منهم في قراءته للألفاظ القرآنية حسبما سمعها منه وقد كان خلافهم في الألفاظ لا المعاني ، تأمل الحديث قول عمر فاذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ . والقراءة تكون في أداء الألفاظ لا المعاني .

مذاهب العلماء في المراد بالأحرف السبعة :

اختلف العلماء في تفسير هذه الأحرف اختلافاً كثيراً ، وقد قال السيوطي أنها أكثر من أربعين قولاً وقد بالغ العلماء في كثرتها وعدوا ما لا يعد ، ونقلوا الغث والسمين من الأقوال وسنذكر أشهرها :

- ١ - ذهب بعض العلماء الى أن المراد من الأحرف السبعة : سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد وقد اختلفوا في تحديد هذه اللغات كذلك فقليل : هي لغة قريش وثقيل وهذيل وهوازن وكنانة وتميم . وقيل غير ذلك . ولا دليل لهذا القول في أن المراد بالأحرف سبع لغات ولا دليل أيضاً في تحديد هذه اللغات فهي تحكم من غير دليل .

٢ - وذهب بعضهم الى أن الأحرف السبعة أوجه سبعة على النحو الذي ذكر في الحديث عن ابن مسعود عن النبي ﷺ انه قال : كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زجر وأمر ، وحلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال .

وهذا مردود سنداً فقد أخرجه الحاكم والبيهقي وليس سنده يصح ولو أن صح السند لكان حاسماً للنزاع . وبالإضافة الى ذلك فان هذا القول مردود بالعقل وما صح بالنقل وما يثبت من حوادث التاريخ من خلافة .

٣ - وذهب جماعة من العلماء الى أن المراد بها وجوه اختلاف معينة ولا تخرج من هذه السبعة :

أ - اختلاف الأسماء من أفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث مثال (قوله تعالى : « **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** » قرىء بأمانته) بالافراد . ورسم المصحف تحتمل القراءتين (تأمل لا منتهم) كما كتبت في المصحف فهي تحتملها .

ب - اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر مثاله قوله تعالى : « **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** » . قرىء ربنا بالنصب وبالجزم باعد . وقرىء ربنا بالرفع وباعد فعل ماض . وقرىء بعد بفتح العين المشددة مع رفع ربنا .

ج - اختلاف وجوه الاعراب ومثاله : « **ولا يضار كاتب ولا شهيد** » قرىء يضار بضم الراء . فالفتح على أن لا الناهية . والضم على أن لا النافية . ومثاله : « **ما هذا بشراً** » (٥) وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ ابن مسعود « **ما هذا بشر** » .

٥ - سورة يوسف آية ٣١ .

د - الاختلاف بالتقديم والتأخير وأفضل تمثيل على هذا الوجه
مما ثبت وصح في قوله تعالى : « فيقتلون ويقتلون » (٦) بالبناء للفاعل
في الأول وللمفعول في الثاني وقرىء العكس .

أما التمثيل على ذلك بقوله تعالى في سورة (ق) : « وجاءت سكرة
الموت بالحق » ، « وجاءت سكرة الحق بالموت » فهو باطل لأن هذه
ليست بقراءة ولم تثبت .

هـ - الاختلاف بالزيادة والنقصان وقد مثلوا له بقوله تعالى :
« وما خلق الذكر والأنثى » قرىء بهذا اللفظ وقرىء أيضاً « والذكر
والأنثى » بحذف الكلمتين « وما خلق » ، أقول وفي هذا المثال نظر .
فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن علقمة أنه قدم الشام
فجلس إلى أبي الدرداء ، وقال له أبو الدرداء : فمن أنت ؟ فقال : من
أهل الكوفة ، قال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول : والليل إذا يغشى ؟
قال علقمة : والذكر والأنثى : والله لا أتابعهم أقول : وفي هذا المثال
نظر ولا يسلم به التمثيل وقد كانت مثار نقد المفسرين قديماً وحديثاً
يقول أبو حيان في تفسيره البحر المحيط : وما ثبت في الحديث من قراءة
« والذكر والأنثى » نقل أحاد مخالف للسواد فلا يعد قرآناً . ويقول
الألوسي في تفسيره روح المعاني : (وأنت تعلم أن هذه القراءة شاذة
منقولة أحاداً لا تجوز القراءة بها) (٧) .

و - الاختلاف بالاببدال : مثاله قول الله تعالى : « وانظر إلى العظام
كيف ننشزها » بالزاي وقرىء ننشرها بالراء وباببدال الحاء عيناً في
كلا الآيتين (حتى حين) بقراءة (عتي) والآية « وطلع منضود » بقراءة
(وطلع) ولا فرق في الإبدال بين الفعل والاسم كما مثلنا . وحول هذه
القراءة كلام طويل عند بعض المفسرين .

ز - اختلاف اللغات : أي اللهجات كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم
والإظهار والإدغام وكسر حرف المضارعة وأشباع ميم الذكور ونحو ذلك .

٦ - سورة

٧ - المناهل ١/١٦١ .

مثال ذلك قول الله تعالى : « هل اتاك حديث موسى » قرىء بأماله آتى وموسى نحو الكسر وقد رسمت أتاك في المصحف (اتيك) لامكان قراءتها على حرفين . ومثال ذلك الترقيق والتفخيم قول الله تعالى : « خبيراً بصيراً » بترقيق الراءين ، والصلاة والطلاق : بتفخيم اللامين . ومثال الهمز والتسهيل قول الله تعالى : « قد افلح » بترك الهمزة ونقل حركتها من أول الكلمة الثانية الى آخر الكلمة الأولى وهذا الوجه نلمس به حكمة التسهيل والتيسير على أمة أمية فيها الشيخ الفاني والعجوز ، فيها من اعتاد لسانه النطق على طريق معينة يصعب عليه التغيير والتبديل وبعد العمر الطويل . ونحن في عصرنا نلمس ذلك في عادات الأقوام والشعوب العربية .

وقريب من رأي الرازي ما ذهب اليه ابن قتيبة مع اختلاف في التعبير عن المراد بالأوجه بل استفاد الرازي من غيره في استجلاء معاني الأحرف السبعة وقد دمجها في ستة . وأضاف إليها الوجه السابع السالف ذكره والذي كان من أهم الأوجه على ما يبدو .

سنذكر رأي ابن قتيبة لبيان مدى تأخر من بعده فيمن ذهب اليه . قال : ان الأحرف السبعة ، الأوجه التي يقع بها التغيير هي :

- ١ - ما يتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل : (ولا يضار كاتب) بفتح الراء وضمها .
- ٢ - ما يتغير بالفعل مثل : (بعد وباعد) بلفظ الطلب والماضي .
- ٣ - ما يتغير باللفظ مثل : (ننشرها وننشزها) بالراء والزاء المعجمة .
- ٤ - ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل : (طلع منضود) (و طلع منضود) .
- ٥ - ما يتغير بالتقديم والتأخير المثل السابق ذكره .
- ٦ - ما يتغير بالزيادة والنقصان المثل السالف ذكره .
- ٧ - ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل : (كالعهن المنفوش وكالصفوف المنفوش) .

والذي يفعله الرازي حتى جعل هذه السبعة ستة أنه دمج الوجه السابع مع الوجه الرابع تحت كلمة الإبدال التي قد يكون في حرف وقد يكون في كلمة كاملة وقريب منهما رأي القاضي ابن الطيب . والذي تجدر الإشارة إليه إلى أن هذه المعاني أنها انما بنيت على الاستقراء التام بواسطة الاستنتاج ولم يصح في هذه المعاني خبر ولا أثر فالقول بها ضرب من ضروب الاجتهاد وفق إلى اصابة الحق من وفق وأخطاء من أخطاءه والكل ماجور ان شاء الله .

وبناء عليه فان المصاحف العثمانية قد حوت الأحرف السبعة ولم تهتم ما جعله الله تسهيلا وتيسيراً على خلقه ، فمن قرأ حرفاً من هذه الحروف فقد أصاب شاكلة الصواب ما دام قد قرأ شيئاً ورد القرآن بذكره ، فالقراءة بحرف مبنية على السماع هكذا أنزلت . وباعتنادنا ان كثيراً من الأحرف السبعة ما زالت في المصاحف العثمانية مدونه ، فالمصاحف برسمها التوقيفي تحتمل الكثير مما ورد ذكره .

أما ادعاء ابن جرير الطبري وأقرانه أن المصاحف العثمانية لم تشتمل الا على حرف واحد من الحروف السبعة ، فنتج عن تفسيرهم للأحرف السبعة وما التزموه فيها من انها كانت في صدر الاسلام ابان رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان ، ثم رأت الأمة بقيادة عثمان أن تختصر على حرف واحد من السبعة جمعاً لكلمة المسلمين فأخذت به واهملت كل ما عداه من الأحرف الستة ونسخ عثمان المصاحف بهذا الذي استبقته الأمة (٨) وعجيب أن يصدر مثل هذا الكلام عن ابن جرير الطبري ثم ينسب إلى عثمان الذي عرف ان علاج الرسول لمثل هذا النوع من الخلاف الذي دب في زمانه كان يجمع الناس وتقريرهم على الحروف السبعة لا يمنهم عنها كلا ولا بعضاً . ثم كيف يفعل عثمان كذلك وتوافقه الأمة ويتم الاجماع ؟ ثم يكون خلاف في معنى الأحرف السبعة مع قيام هذا الاجماع (أي كيف تجمع الأمة على ترك ستة احرف وابقاء حرف واحد مما يختلف العلماء في معنى الأحرف السبعة على أربعين قولاً) ويكادوا أن يتفقوا رغم خلافهم هذا على أن الأحرف السبعة باقية مع أن الاجماع حجة وبه ينجلي ظلام الشك عن وجه اليقين .

أقول : وأياً كان أمر الخلاف بين الجمهور وابن جرير الطبري فانهم مجمعون على حقيقة واحدة وهو ان ما هو مكتوب في المصاحف هو مما أجمع عليه الصحابة والتابعون وأجمع عليه الجمهور ومعهم ابن جرير وان ما ورد في نسخ عثمان للمصاحف لا زيادة فيه ولا نقصان وان اختلفت تفاسيرهم لمعنى الأحرف السبعة فلا معنى لطعن طاعنين واقتراء مفتريين في اثاره الفتن بقولهم ان ما وجد في مصحف عثمان ليس هو عين ما وجد في زمن النبي ﷺ وعين ما كان في جمع أبي بكر بل ذهب المشعوذون ان كثيراً من الآيات قد حذفت والتي تتعلق بعلي كرم الله وجهه حاشاً لصحابة الرسول ﷺ ان يفعلوا وكبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذباً .

الفصل الرابع

نزول القرآن والقراءات

هذا مبحث من مباحث نزول القرآن وبعد أن تحدثنا عن نزول الوحي للقرآن ونزوله بالأحرف السبعة ، نتحدث عن نزوله بالقراءات لنبين ان اختلاف القراءات ليس مبيناً عن هوى وابتداع بل هو قائم على وحي واتباع وسنبداً بالقراءات وتعريفها فنقول :

القراءات لغة :

جمع قراءة وهي مصدر من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً واسم الفاعل منه قارئ وجمعه قراء .

القراءات بالاصطلاح فقد عرفها العلماء بتعريفات متعددة منها ما قاله ابن الجزري : (أنها علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقله) .

وما قاله اليمياني أنها (علم يعلم منه اتفاق الناقلين بكتاب الله واختلافهم للحذف والاثبات والتحريك والتسكين والفصل والوصل وغير ذلك من هيئة النطق والابدال وغيره من حيث السماع) . ونلخص في هذا التعريف قوله واسهبه وأفضل من هذين التعريفين ما قاله الزركشي بأنها (اختلاف الفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيةها من تخفيف وتشديد وغيرها) (١) . وهذا التعريف يظهر لنا حقيقة اختلاف القراءات ومصدرها الحقيقي ، إذ أن بعض العلماء قد أوهم من خلال تعريفه من قراءته بأنها مذهب يذهب اليه المقرء ويشعر أن نشأة القراءات ليس من الوحي بل هو محض اجتهاد أو مذهب يذهب اليه المقرئون والتعريفات السابقة لم تجل لنا هذه الحقيقة بصورة واضحة وناصعة . وقد وجدت بعض المحدثين قد تأثر بتعريفاتهم حيث لم يبين لنا هذه

١ - البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ج ١ ص ٣١٨ .

الحقيقة بياناً شافياً فمنهم من عرفها بأنها مذهب يذهب اليه أمام من أئمة القرآن مخالفاً به غيره (٢) في النطق بالقرآن الكريم فكان القراءة على حد هذا التعريف هي من الامام القارىء وليست من الوحي النازل من السماء لذا فنجد بعض المحدثين يلقي تعريفه واضحاً في بيان هذه الحقيقة .
 ويلحظ ان القراءات انما هي وحي من السماء والخلاف فيها مبني على نطق الوحي وليس على رأي المقررء واجتهاده فقال (هي النطق بالفاظ القرآن كما نطقها النبي ﷺ أو كما نطقت أمامه ﷺ فأقرأها) (٣) وقريب من هذا التعريف : تلاوة ألفاظ القرآن الكريم كما تلاها المصطفى ﷺ أو كما علمها وسمعها من أصحابه وأقرهم عليها (٤) .
 وهذا التعريف قريب من تعريف الامام الزركشي في البرهان اذ قال :
 اختلاف ألفاظ الوحي والثاني قال : النطق بالفاظ القرآن كما نطقها النبي ﷺ .

ولا شك أن ما نطقه النبي ﷺ هو وحي : « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » .

لمحة تاريخية عن نشأة القراءات :

يعزو (جولد زيهر) الاختلاف في القراءات القرآنية الى تجرد الخط العربي الذي رسم به القرآن من النطق والشكل مع أن من خصوصية الخط العربي أن هيكله المرسوم يقدم - أي عند ارادة النطق بالمحتوى - مقادير صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته ، وعدد تلك النقاط هو أنه حتى في حالة تساوي المقادير الصوتية يؤدي اختلاف الحركات الى اختلاف مواقع الاعراب للكلمة وبالتالي الى اختلاف دلالتها . وهذا كلام الخبيث بل أخبت الخبيثاء (جولد زيهر) وهو يريد من كلامه :

-
- ٢ - مناهل العرفان ص ٤٠٥ وقد نقله الشيخ مناع القطان ص ١٤٧ من كتابه مباحث في علوم القرآن .
 - ٣ - القراءات القرآنية ص ٦٤ والتعريف للدكتور عبد الهادي الفضلي .
 - ٤ - اتحاف فضلات البشر ص ٥ .

١ - ان الأمة الاسلامية قد اعتمدت في أخذ كتاب ربها على مثل ما اعتمد عليه غيرها من النقل من الصحف المكتوبة والقراءة من الخط المرسوم فحسب فوقعت لذلك وبسبب تجرد هذا الخط من أول الأمر من الشكل والنقط في كثير من التحريف والتصحيف في القرآن حيث قرأها كل بحسب ما اتفق له من الفهم وما رآه من صحة المعنى وحسنه في نفسه فوقعوا بسبب ذلك في الاختلاف على ما تقتضيه ضرورة تفاوت الأفهام ، واختلاف الملاحظ الى حد التباين في كثير من الأحيان هذا متصده الأول وهو أبعد ما يكون عن الحقيقة وذلك لما نعلمه ويعلمه غيره من المستشرقين بل ويعلمه هو أنه منذ تبليغ النبي ﷺ لأول آية منه والى يومنا هذا . والأمة الاسلامية لا تعتمد على ما هو مكتوب بين دفتي الصحف بل تعتمد التلقي الشفاهي المسلسل المتواتر الى النبي ﷺ وان طبيعة تعلم القرآن لم تتمثل في يوم من الأيام على الاطلاق في الأخذ من المصحف والاعتماد في قليل أو كثير على مجرد الرسم كما توهم زهير فادعى . والرد الثاني على هذه الفرية ما ثبت بالتاريخ الصحيح أننا لا نزال نرى الكثير من محفظي القرآن وقراءاته اليوم يعطون تلاميذهم بعد أن يتموا حفظه على أيديهم اجازة تتضمن سند تلقية المتصل عنهم الى النبي ﷺ وان كثيراً من الاسانيد الصحيحة المتصلة مدونة محفوظة في كتب القراءات ما ينكر هذا الا جاهل أو مكابر .

٢ - يريد أن يبين أن الصلة بين آخر هذه الأمة وأولها قد انقطع في وقت مبكر لسبب من الأسباب بحيث استحال على الآخرين أن يتلقوا القرآن من أفواه الأولين المتلقين له بدورهم عن النبي ﷺ ، وزهير يتجاهل التاريخ الثابت بكمال العدالة وتحري الصدق والامانة من جميع أصحاب النبي ﷺ الذين هم أولى حلقات السلسلة المباركة المتصلة من نقلة القرآن وشريعته الى الأمة وحسن بلائهم في أداء ونصرة هذه الشريعة الى حد لم تعرف الدنيا له مثيلاً ، ولا ريب أن زهير يعرف ذلك حق المعرفة وان الشأن فيه وفي جميع أمثاله ما قال الله في قرآنه الحكيم : « وجعلوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » فأنظر كيف كان عاقبة المفسدين .

٣ - أما القول بثلاثة الأثافي - فما سبق من مواقف هذا المستشرق من قضية القراءات القرآنية حيث ساق لنا ما قاله العالم اللاهوتي بيتر فير تفلس عن الانجيل (كل امرىء يطلب عقائده في هذا الكتاب المقدس ، وكل امرىء يجد فيه على وجه الخصوص ما يطلبه فكل تيار فكري بارز في التاريخ الاسلامي زاوّل الاتجاه الى تصحيح نفسه على النص المقدس والى اتخاذ هذا النص سنداً على موافقته للاسلام مطابقة لما جاء به الرسول ﷺ وبهذا وحده كان يستطيع أن يدعي لنفسه مقاماً وسط هذا النظام الديني وأن يحتفظ بهذا المقام) ، وكلامه هذا ينطوي على أمرين فاضحين :

أولهما : انه وصف الانجيل بالقداسة وساوي بينه وبين القرآن وكل من يحترم العقل ويعرف له حقه على العقلاء يعرف أن بين القرآن وبين الانجيل بوناً عظيماً وشأواً قصياً في هذا المضمار . فالانجيل قد حرفت وغيرت ليس بنص القرآن فحسب بل وباعترافهم هم وفي آخر صيحة للحق أن الموسوعة الأمريكية الحديثة قد أوردت الوضع والتحرير لنصوص الديانة اليهودية والنصرانية على حد سواء .

ثانيهما : ادعى انه كل امرىء يستطيع وضع النص أو قراءته على وجه يؤيد بدعته ونحلته فهو باطل وذلك أن جولد زيهر نفسه يرى أن من القراءات ما هو متواتر مقطوع بصحته ، وهذه القراءات المتواترة لا يعني بحال أن مصدرها الناس بل الرسول ﷺ تلقاها بالوحي واخبرنا بالحديث الصحيح أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، وأذن لكل صحابي بأن يقرأ على حرف ، وأذن لآخر أن يقرأ على حرف آخر ، وقراءة هذا أو ذاك واختلاف هذا مع ذلك لم يكن للهوى الشخصي له أثر بل الكل متبع لا مبتدع انظر الى كلام الصحابة « أقرانيها رسول الله » وانظر الى اقرار الرسول ﷺ لقراءة حكيم حين اختلف مع عمر ، هكذا انزلت والى اقرار قراءة عمر هكذا أنزلت .

فالاختلاف كان قديماً ولكنه اتباع لا ابتداع ، ومظاهر الاختلاف في القراءات أصدق أمانة على كمال الاعجاز ونصوع المسحة الالهية الحكيمة على كل كلمة من كلمات هذا الكتاب المعجز : (ان كان ثمة غير هذا فليحدثنا به فاذا لم يجد لتفسير هذه الظاهرة فرضاً آخر تقبله

العقول لا في جوف الأرض ، ولا فوق أديم السماء ، لكونه من المستحيلات التي لا توجد الا في تصوير أوهام الحاقدين ، وجهلة المستكبرين فانا نقول له ولأمثاله : ان مسألة تعدد احرف القرآن وقراءاته الثابتة من عند الله طبعاً لا تجافي أبدا حقيقة توحيد النص القرآني (٥) .

شروط القراءات :

كان الحديث عن القراءات ومعناها قد كثر فيه الخلاف بين أئمة هذا العلم فان الحديث عن شروطها أكثر خلافاً فأكثرهم يشترط لقبول القراءة شروطاً ثلاثة ومنهم من يكتفي بشرطين ومنهم من يقتصر على شرط واحد ، والقائلون بالشروط الثلاثة يتفاوتون في الأخذ بكل شرط منها ، وسأضع بين يديك هذه الشروط كما نظمها أحد أئمة هذا الشأن شعراً فقال :

فكل ما وافق وجه نحوي وكان للرسم احتمالا يحوي
وصح أسناداً هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن ثبت شذوذه ولو أنه في السبعة

فهذه الشروط الثلاثة ، وسأبدأ بذكر أهمها بل المجمع على اشتراطه الا وهو :

١ - صحة السند :

وهذا أول الشروط المعتمدة بل هو الذي يستهل به العلماء حديثهم عن شروط القراءات . فابن مجاهد شيخ هذه الصنعة ، اذ هو أول من سبغ السبعة قد قال : « والقراءة التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة

٥ - لجولد زهير كلام خبيث حيث يرى أن عثمان بن عفان لم يفلح في توحيد النص القرآني . وترد على لسانه (النص المفترض) وغير ذلك وكلامه طويل والرد عليه أكثر لا نستطيع استيفاءه في هذه العجالة بل تحتاج الى مؤلف كامل . وقد أحسن وأجاد الأستاذ الزميل العالم الدكتور ابراهيم خليفة وذلك في كتابه القيم مناهج المفسرين وقد استفدنا من هذه المقدمة (من القراءات ونقلنا أكثرها بتصرف يسير) أنظر صفحات (٨٠) فما فوق .

والبصرة والشام هي القراءة التي تلقوها عن أوليهم تلقياً وقام بها في كل مصر من هذه الأمصار رجل ممن أخذ عن التابعين أجمعت الخاصة والعامة على قراءته وسلكوا فيها طريقه وتمسكوا بمذهبه . فلا يمكن اعتبار القراءة القرآنية إلا إذا كانت قد أخذت بطريق التلقي والمشافهة وهذا ما يؤكد في موضع آخر إذ يقول : « فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام خلفوا في القراءة التابعين وأجمعت على قراءتهم العوام من أهل كل مصر من هذه الأمصار » (٦) . فابن مجاهد يشترط لقبول القراءة صحة السند والى ذلك ذهب جمهور العلماء والمحققين كابن شنبوذ والامام أبو الحسن البغدادي وابن خالوية ومكي بن أبي غالب والامام الكواشي والامام أبو شامة .

ولم يشذ عن اجماع هؤلاء العلماء الا محمد بن الحسن بن يعقوب المتوفى سنة (٣٥٤) فانه لم يشترط السند واكتفى بقبول القراءة بشرطين موافقة الرسم وموافقة اللغة العربية وأسقط صحة السند ، وفي ذلك يقول ابن الجزري وله (أي المذكور) اختيار في القراءة رويناه في الكامل وغيره رواه عنه أبو الفرج الشنبوذ ويذكر عنه أنه كان يقول : « ان كل قراءة وافقت المصحف ووجهاً في العربية فالقراءة بها جائزة وان لم يكن لها سند » (٧) .

أقول : هذه هفوة من الهفوات التي لا يرتضيها شرع ولا عقل . وهي من أفسد الأقوال فالقراءات قد تزداد وتنقص وفق احتمال موافقتها للغة أو للرسم القرآني ، وبالتالي فهي وفق هوى واجتهاد أئمة اللغة .

٢ - موافقة القراءة للرسم القرآني :

وقد ذهب كثير من العلماء الى اعتبار هذا الشرط وقد ذكره أبو الفرج الشنبوذ في أول الشروط المعتمدة إذ يقول : (ان كل قراءة وافقت المصحف ووجهاً في العربية فالقراءة بها جائزة) . ويفهم مما ورد في كتاب السبعة في القراءات عدم اشتراطه إذ يقول : (فمن حمله

٦ - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ، تحقيق د . شوقي ص ٨٧
٧ - غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ، ج ٢ ص ١٢٤ .

القرآن العرب العالم بوجوه الاعراب والقراءات العارف باللغات ومعاني الكلمات ، البصير بعيب القراءات ، المنتقد للآثار فذلك الامام النبي يفرع اليه حفاظ القرآن في كل مصر من أمصار المسلمين (٨) .

فهذا الكلام يدلنا على شرطين لا ثالث لهما : وهما صحة السند وموافقة العربية . أما الامام أبو الحسن البغدادي شيخ القراء بالعراق فقد أسقط موافقة القراءة للرسم القرآني . وسنعرّف وجهة نظره فيما بعد . وقد توسع بعض العلماء في موافقة القراءة للرسم القرآني ، فرأى أن الموافقة قد تكون مطابقة تحقيقاً كما في قوله تعالى : « لا ننشرها » و « لا ننشرها » بالزاي ، أو قد تكون تقديراً كما في قوله تعالى : « مالك يوم الدين » و « ملك يوم الدين » ولذا فقد أضاف الى هذا الشرط أي « موافقة القراءة للرسم » فقال ولو احتمالاً .

٣ - موافقة القراءة للغة العربية :

ذكره صاحب النشر أول الشروط المعتمدة كما ذكره الكواشي من قبله ثاني الشروط المعتمدة بعد صحة السند . ومن العلماء من أسقط اعتباره ومنهم من أطلق موافقة القراءة للغة العربية . فالكواشي يقول كل ما صح سنده واستقام وجهه في العربية . فالمعتبر عنده أن يستقيم وجهه في العربية . ومن العلماء من يقيد هذا الشرط فلا يطلقه فيشترط لاعتبار القراءة القرآنية موافقتها للشائع في اللغة . يقول مكّي بن أبي طالب في أركان القراءة الثلاثة :

١ - أن ينقل عن الثقات عن النبي ﷺ .

٢ - ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعاً (٩) .

أما أبو الفرج الشنبوذي فلا يرى موافقة القراءة القرآنية لما هو شائع في اللغة بل يكتفي بموافقتها لوجه من أوجه العربية (١٠) وذهب ابن الجزري الى ما ذهب اليه أبو الفرج الشنبوذي فقال :

٨ - المرجع السابق ص ٤٥ .

٩ - غاية النهاية ، ج ٢ ص ١٢٤ .

١٠ - غاية النهاية ، ج ٢ ص ١٢٤ .

« كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه من الوجوه » .

نرى مما تقدم أن مكّي بن أبي طالب قد اشترط قوة الوجه في العربية . أما الآخرون فاشتروا مجرد الموافقة سواء أكان وجه الموافقة فصيحاً مجتمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالاسناد الصحيح . وفي التطبيقات بيان عامل لهذه القضية . نسأل الله أن يعين على إخراجها مستقلاً .

نظرة في الشروط :

لو تأملنا هذه الشروط لوجدناها شروطاً تخضع لاستقراء العلماء واستنباطهم فمنهم من جعلها شرطاً واحداً . ومنهم من جعلها شرطين مع اختلاف في تحديد الشرطين ، ومنهم من جعلها ثلاثة شروط . فمنهم من اكتفى بصحة السند ، ومنهم من أضاف إليه الموافقة للرسم ، ومنهم من أضاف الموافقة للغة ، وفي كل شرط خلاف ، ففي السند : من العلماء من ذهب الى اشتراط التواتر ، ومنهم من اشترط الشهرة ، ومنهم من اكتفى بصحة السند ولو نقل آحاداً .

وفي موافقة الرسم ، منهم من اشترط الموافقة تحقيقا ، ومنهم من قبلها ولو تقديراً . وفي موافقة اللغة كلام استوفيناه في موضعه .

والذي لا شك فيه ، بل والمجمع عليه هو صحة السند ، بل أرى انه الشرط الوحيد الذي ينبغي أن يقتصر عليه والسني أعنيه بصحة السند ليس مجرد الصحة بل تواترها ، ذلك لأن القرآن كله متواتر لا يشك في ذلك مسلم من المسلمين . وقراءته يتعبد بتلاوتها المؤمنون ، وقراءاته المختلفة لا ضير بالاكتفاء ببعضها لأنها كل قرآن ، فـ (أرجلكم) من قوله تعالى : « **وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم** » قرآن . و (أرجلكم) بالكسر في نفس الموضع قرآن و « **مالك يوم الدين** » بهذه القراءة قرآن ، و « **ملك يوم الدين** » قرآن فان شئت قرأت بهذه أو بتلك ، فالقراءة قرآن نتعبد بتلاوتها فلا بد من تواترها لاثبات قرءانيتها .

أما القراءة التي لم تتواتر سنداً فلا تعتبر قراءة مهما أضفت إليها من معايير وشروط وقد أخطأ من حكم بقراءتها إذا وافقت الرسم ووافقت اللغة وأنزلها منزلة التواتر .

ان التواتر لا يكون الا بالسند الذي يرية جمع عن جمع . . الخ ، اذا وضع عندنا صحة اعتبار تواتر السند فلا ضير علينا في الشرطين الأخيرين . لأنه لم يثبت لدينا أن قراءة من القراءات المتواترة . قد خالفت الرسم القرآني ، أو خالفت العربية ، ودع عنك ما يقال أن بعض القراءات القرآنية المتواترة قد خالفت العربية كما زعموا في قوله تعالى : « واتقوا الله الذين تساءلون به والارحام » بالكسر . أو قراءة : « فتوبوا الى ربكم » بالتسكين ، فان كلام النحاة الذين خالفوا ، كلام لا يستند الى دليل ولست في مجال الرد عليهم ، فان الكلام في ذلك يطول .

أعود لأقول : ان شرط القراءة أو ركنها - كما يقول بعض العلماء - هو صحة السند وتواتره ولا ثاني له ، والله أعلم .

ومن العلماء الذين قالوا بتواتر السند أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابن عبد البر ، وابن عطية ، وابن تيمية ، والنووي ، والاوزاعي ، والسبكي ، والزركشي وابن الحاجب وأعجب من قول ابن الجزري اذا انه كان يقول بالتواتر ثم عدل عنه .

أشهر القراء من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين

أشهر القراء من الصحابة :

فالمشهورون من الصحابة باقراء القرآن هم : عثمان ، وعلي ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف الى الآفاق الإسلامية (١١) .

اشهر القراء من التابعين :

بالمدينة المنورة : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن يسار وأخوه عطاء ، وزيد بن أسلم ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب الزهري ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القاري .

بمكة المكرمة : عطاء ، ومجاهد ، وطاووس ، وعكرمة ، وابن أبي مليكة ، وعبيد بن عمير ، وغيرهم .

بالبصرة : عامر بن عبد القيس ، وأبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وجابر بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة وغيرهم .

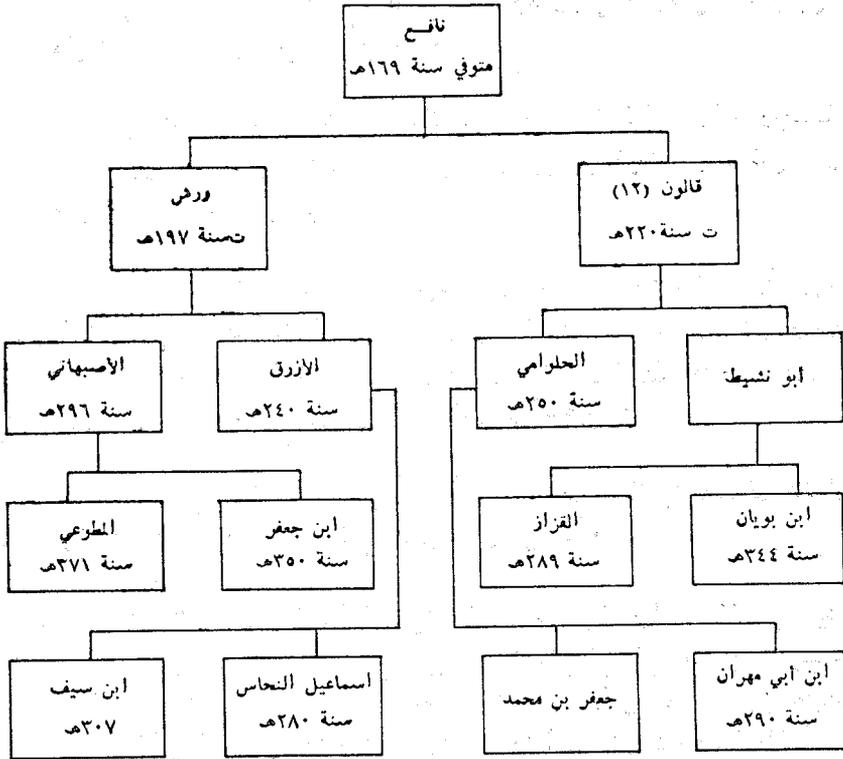
بالكوفة : علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، والربيع بن خيثم ، والحارث بن قيس ، وعمر بن شرحبيل ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وزر بن حبيش ، وعبيد بن فضله ، وأبو زرعة ابن عمرو ، وسعيد بن جبير ، والنخعي والشعبي .

بالشام : المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان ، وخايد بن سعيد صاحب أبي الدرداء وغيرهما .

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويعنون بها ، فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبه بن نصاح ثم نافع بن أبي نعيم . وكان بمكة : عبد الله بن كثير ، حميد بن قيس الأعرج ومحمد بن محيصة . وكان بالكوفة : يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبي النجود ، وسليمان الأعمش ثم حمزة ثم الكسائي . وكان بالبصرة : عبد الله بن أبي اسحق وعيسى بن عمرو أبو عمرو بن العلاء ، وعاصم الجحدري ، ثم يعقوب الحضرمي . وكان بالشام : عبد الله بن عامر ، وعطية بن قيس الكلالي ، وأسماعيل بن عبد الله بن مهاجر ، ثم يحيى بن الحارث الذماري ، ثم شريح بن يزيد الحضرمي ، وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عدة مهروا في القراءة والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل اليهم ويؤخذ عنهم .

القراء السبعة وتلاميذهم :

١ - **نافع** : هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني .
أخذ القراءة عن أبي جعفر القاري وعن سبعين من التابعين وهم أخذوا
عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ
وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة المنورة ، توفي سنة ١٦٩ هـ .
تلاميذه - انظر الرسم :

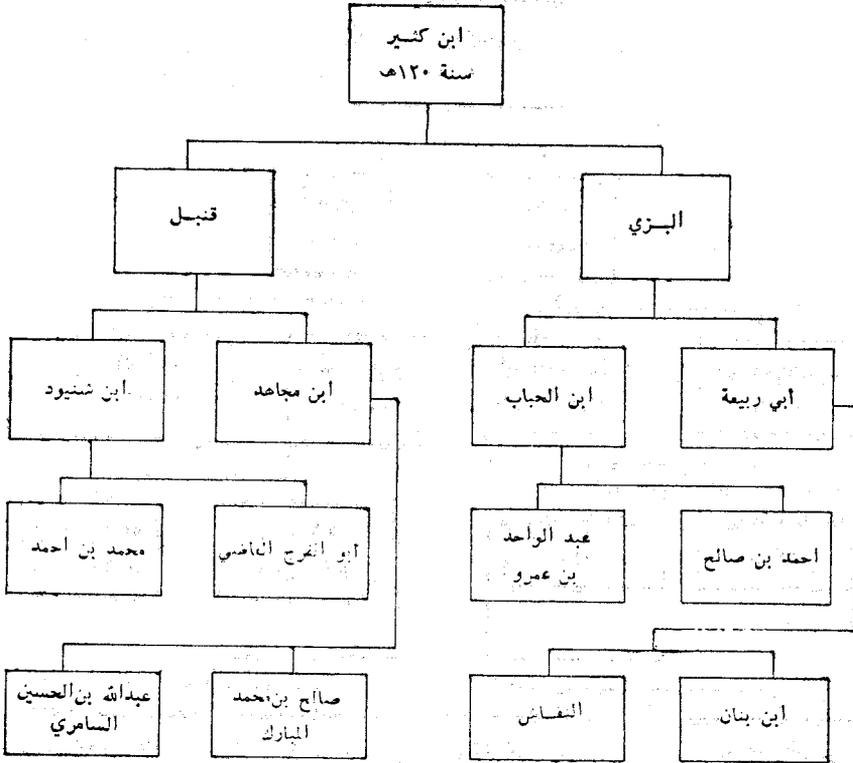


١٢ - المذهب مخصصاً من ص ١٥ (من قالون إلى المطوعي كل السنين مأخوذة
من مذهب . ولقالون من طريقين ثلاث وثمانون طريقاً) ، (النشر
في القرارات العشر ، ج ١ ص ١٧٦ وقد فصلها في ص ١٦٦ -
ص ١٧٦ ولورش واحد وستون طريقاً فصار لنافع مائة وأربع
وأربعون طريقاً) ، (النشر في القرارات العشر ، ج ١ ص ١٨٣) .

٢ - ابن كثير :

هو أبو محمد أو أبو معبد عبد الله بن كثير الداري ، كان أمام الناس في القراءة بمكة . لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير وأبا أيوب الأنصاري وأنس بن مالك . وروى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ وقرأ على عبد الله بن السائب المخزومي ، وقرأ عبد الله هذا على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ وتوفي سنة ١٢٠ هـ .

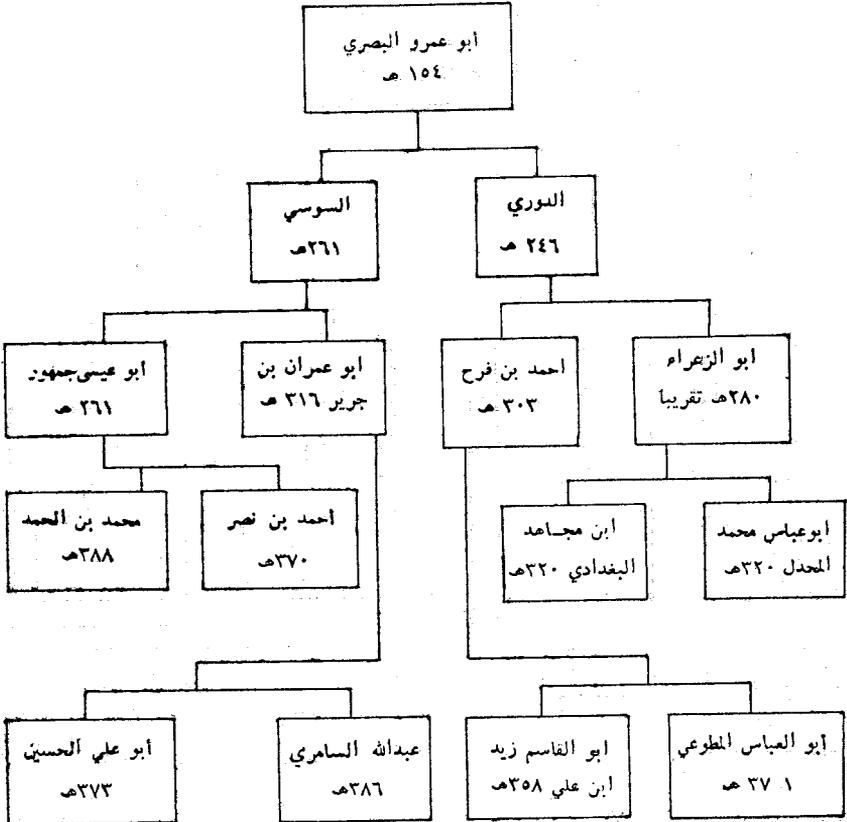
تلاميذه - انظر الرسم :



٣ - أبو عمرو البصري :

هو أبو عمرو زبان بن العلا بن عمار البصري . روى عن مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ ، قرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القعقاع والحسن البصري ، وقرأ الحسن على حطان وأبي العالية ، وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب توفي أبو عمرو سنة ١٥٤ هـ .

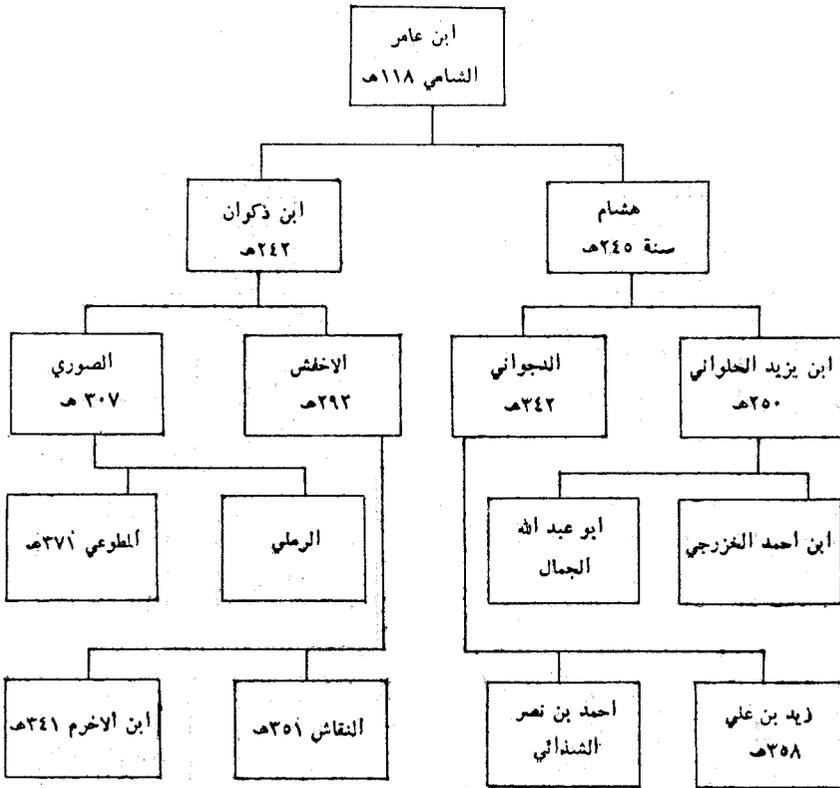
تلاميذه - انظر الرسم :



٤ - ابن عامر الشامي :

هو عبد الله اليحصبي يكنى أبو نعيم وأبو عمران وهو تابعي لقي
 وائلة بن الأسقع والنعمان بن بشير ، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن
 أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ ، وقيل أنه
 قرأ على عثمان نفسه توفي بدمشق سنة ١١٨ هـ .

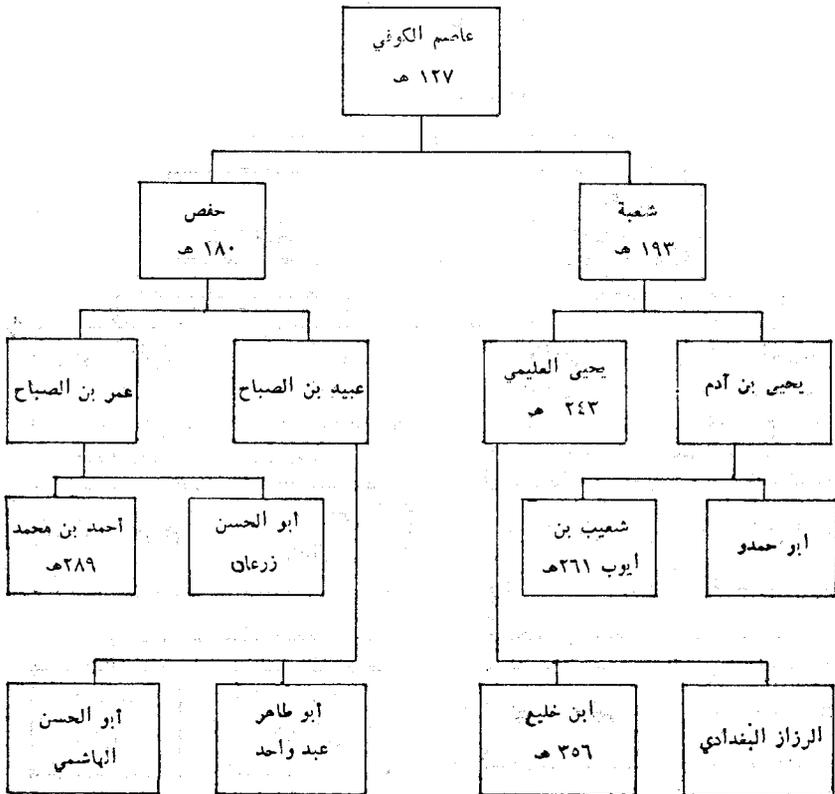
تلاميذه - انظر الرسم :



٥ - عاصم الكوفي :

هو أبو بكر عاصم أبي النجود الأسدي ، قرأ على زر بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ وقرأ أيضاً على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي معلم الحسن والحسين ، وقرأ عبد الرحمن على الإمام علي وأخذ الإمام علي قراءته عن رسول الله ﷺ ، توفي بالكوفة سنة ١٢٧ هـ .

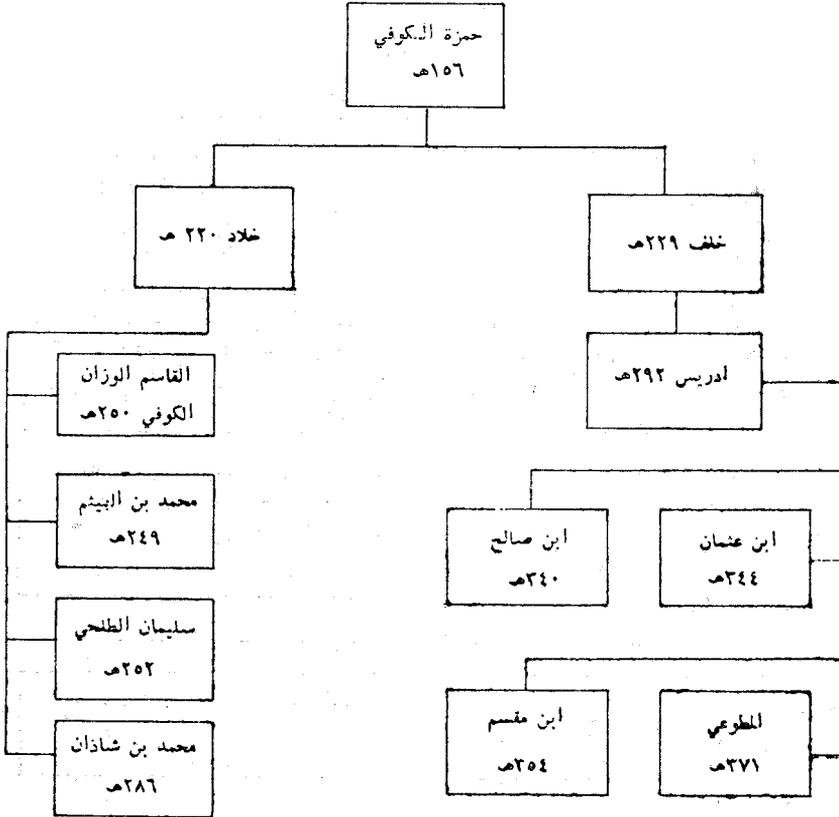
تلاميذه - انظر الرسم :



٦ - حمزة الكوفي :

هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي مولى عكرمة بن ربيع التيمي ، قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الاعمش على يحيى بن وثاب على زر بن حبيش على عثمان وعلي وابن مسعود على النبي ﷺ ، توفي بحلول سنة ١٥٦ هـ .

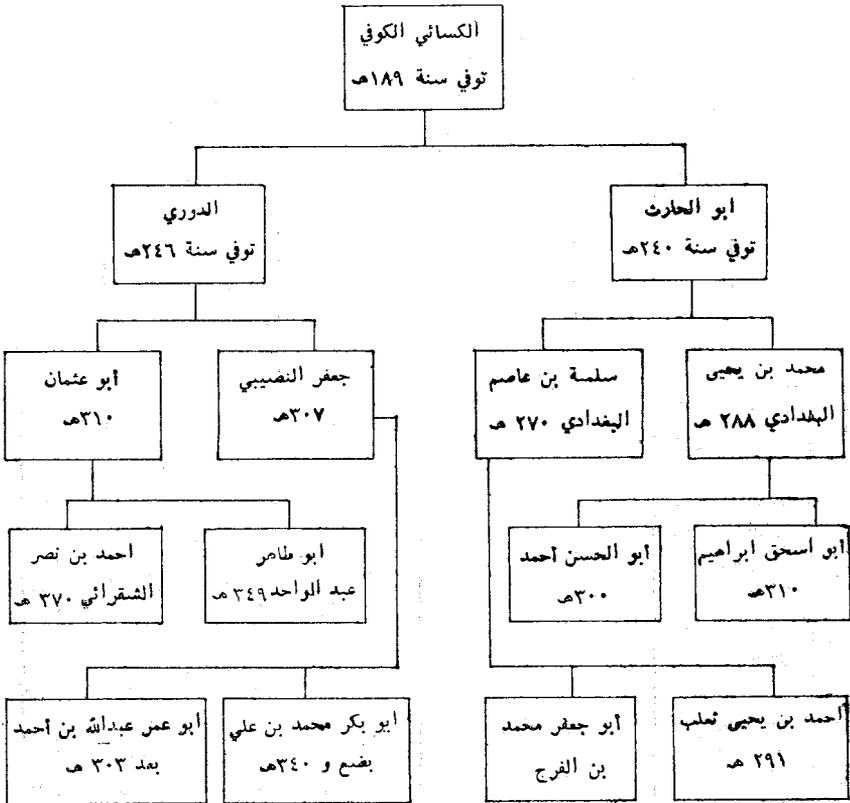
تلاميذه - انظر الرسم :



٧ - الكسائي الكوفي :

هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي لقب الكسائي لأنه كان في الإدام لابسا « كساء » ، قال أبو بكر الأنباري : اجتمعت في الكسائي أمور ، كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب وكان أوحد الناس بالقرآن ، فكانوا يكثرون عليه حتى يضطر أن يجلس على الكرسي ويتلوا القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون منه ويضبطون عنه ، توفي سنة ١٨٩هـ .

تلاميذه - انظر الرسم :

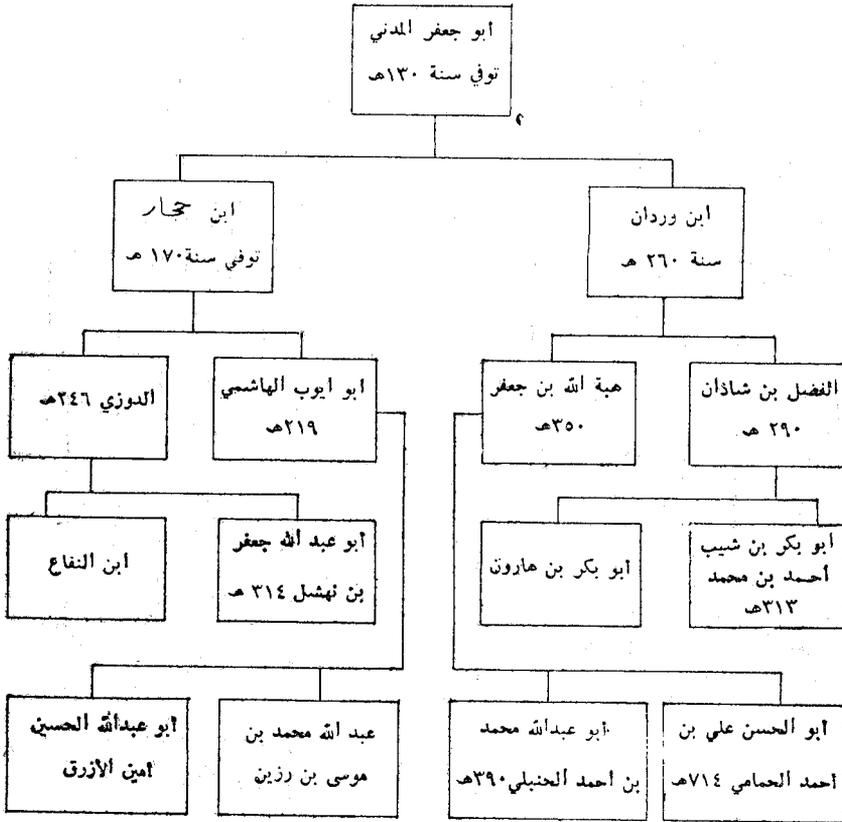


تمام القراء العشرة

٨ - أبو جعفر المدني :

يزيد بن القعقاع القاريء نسبة الى موضع بالمدينة يسمى (قاراً)
انه أخذ عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة ، وعن أبي بن كعب عن
رسول الله ﷺ ، توفي سنة ١٣٠ هـ .

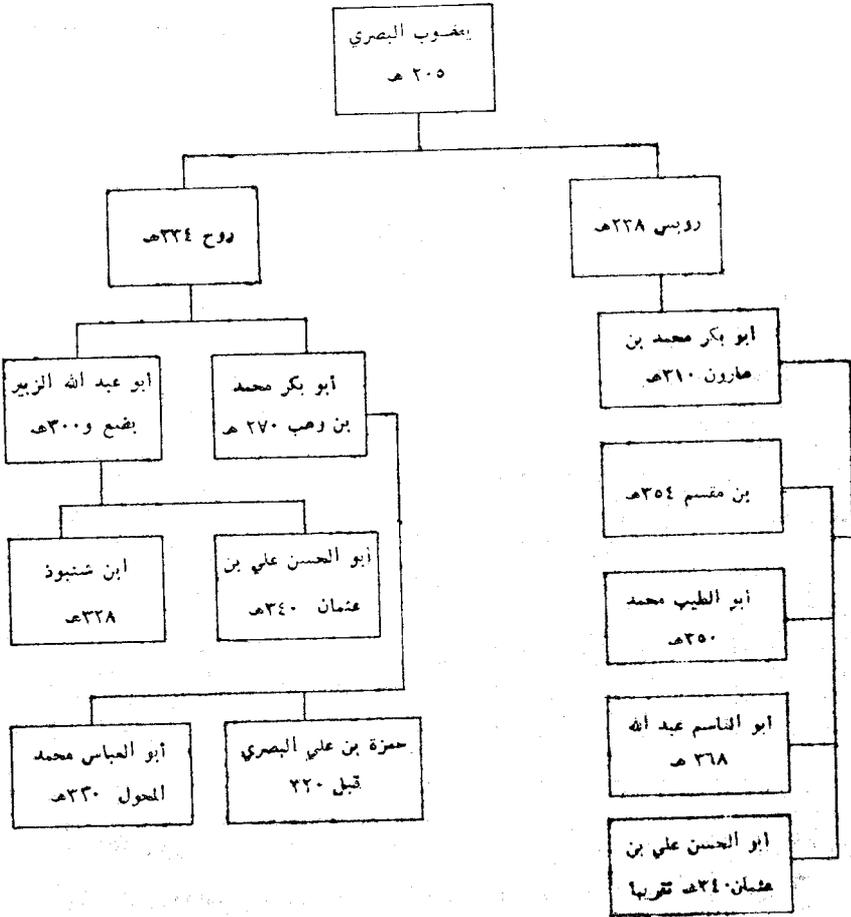
تلاميذه - انظر الرسم :



٩ - يعقوب البصري :

هو أبو محمد يعقوب بن اسحاق الحضرمي قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي عمرو ، توفي بالبصرة سنة ٢٠٥ هـ .

تلاميذه - أنظر الرسم :

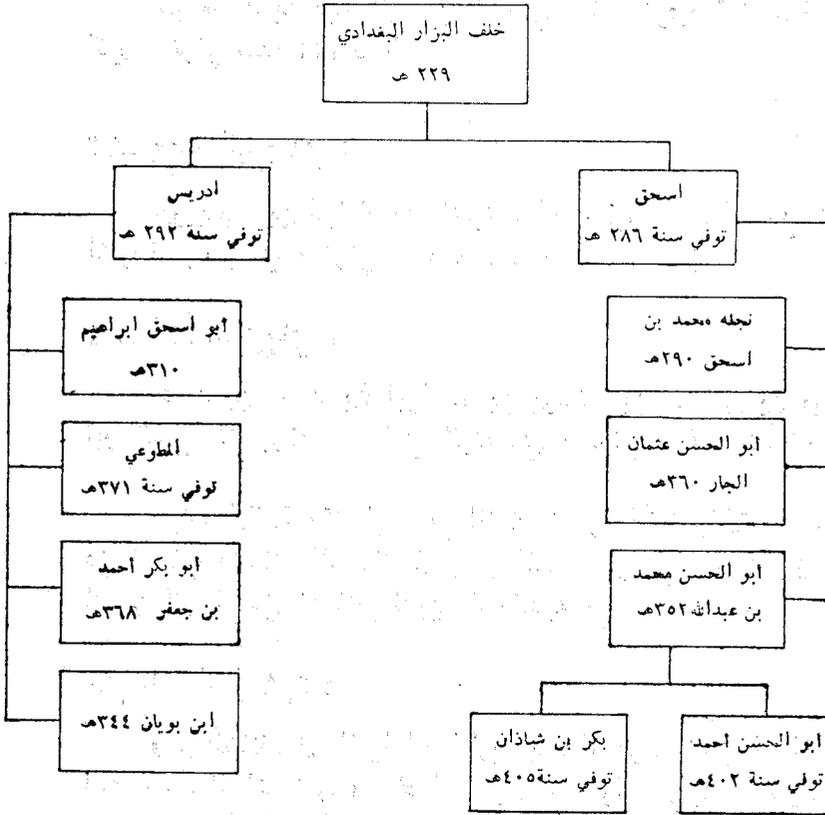


١٠ - خلف البزار :

أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي . قرأ سليم
عن حمزة وعلي يعقوب بن خليفة الأعشى وعلي أبي زيد سعيد بن أوس
الأنصاري صاحب المفضل الضبي وعلي ابان العطار وهم عن عاصم ،
توفي سنة ٢٢٩هـ ببغداد .
تلاميذه - انظر الرسم :

وهذه الطرق المذكورة تفرع عنها طرق بلغت تسعمائة وثمانين

طريقاً (١٣) .



١٣- المهذب ، ص ٢٢ ، وكذلك مناهل العرفان : ج ١ ص ٤٥٧ ، وكذلك
غاية النهاية ص ٢٧٢-٢٧٤ ، ج ١ .

تمام القراء الأربعة عشر :

١١ - الحسن البصري :

هو السيد الامام الحسن يسار أبو سعيد البصري الغني بشهرته
عن تعريفه • توفي سنة ١١٠ هـ •

١٢ - ابن محيصة :

هو محمد بن عبد الرحمن السهمي المكي مقرئ أهل مكة مع ابن
كثير • توفي سنة ١٢٣ هـ •

١٣ - يحيى اليزيدي :

هو يحيى بن المبارك بن المغيرة ، الامام أبو محمد العدوي البصري
المعروف باليزيدي • توفي سنة ٢٠٢ هـ •

١٤ - الشنبوذي :

محمد بن احمد بن ابراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون
أبو الفرج الشنبوذي انشطوي البغدادي • توفي سنة ٣٨٨ هـ •

هؤلاء الأئمة وأضرابهم هم الذين خدموا الأمة والملة ، وحافظوا
على الكتاب ونسأل الله تعالى أن يعمر الجميع بوسع رحمته وأن يجزيهم
أحسن الجزاء على خدماتهم لدين الله وكتابه •

حكم ما وراء العشرة :

وقع الخلاف في القراءات الأربع بعد العشر - فقليل ان المسألة
ليست مسألة أشخاص ولا أعداد ، بل هي قواعد ومبادئ فأیما قراءة
تحققت فيها الاركان الثلاثة لذلك الضابط المشهور فهي مقبولة والا فهي
مردودة لا فرق بين قراءات القراء السبع والقراء العشر والقراء الأربعة
عشر وغيرهم • وقبلت أقوال غير ذلك ، والراجع عندي ما قاله الجوزي :

ان القراءات العشر التي بين أيدينا اليوم متواترة دون غيرها .
قال في منجد المقرئين ما يفيد أن الذي جمع في زمننا هذه الأركان الثلاثة
هو قراءة الائمة العشرة التي أجمع الناس على تلقيها بالقبول ، أخذها
الخلف عن السلف الى أن وصلت الى زماننا ، فقراءة أحدهم كقراءة
الباقيين في كونها مقطوعاً بها . ولا تزال هناك مدارس بالشام ومصر
تدرس السند في القراءة ثم تدرس القراءة الى يومنا هذا لاستمرار
التواتر في النقل .



الفصل الخامس

المكي والمدني

المراد بالمكي والمدني :

لم يرد عن النبي ﷺ بيان في ذلك ، لأن المسلمين آنذاك لم يكونوا في حاجة الى هذا البيان ، فهم يشهدون الوحي ومكانه وزمانه ، وأسباب نزوله بل ينظرونه أحيانا لتوضيح مسألة أو للحكم في قضية .

بيد أن الخلاف وقع بين العلماء حين غابت هذه الظروف وامتد الزمن - حول بعض الآيات وبعض السور ، وأظهر ما يكون الخلاف في السور المكية وآياتها ، لأن حوادث مكة لم تعد واضحة بينة مثل حوادث المدينة .

هذا بالنسبة للترتيب الزمني لنزول الآيات والسور . أما من ناحية أن هذا القرآن مكي وهذا مدني فيمكن القطع فيه على وجه الاجمال الا في آيات قليلة فيها خلافات يسيرة .

هذا وقد تعددت وجهات نظر العلماء في تحديد المراد من المصطلح المكي والمدني فمنهم من بنى تقسيمه على المخاطب بالآيات . فما وقع خطاباً لأهل مكة فهو مكي ، وما نزل خطاباً لأهل المدينة فهو مدني .

وفيه من نظر الى موطن نزول الآيات فما نزل بمكة وضواحيها ولو بعد الهجرة كآية : « اليوم أكملت لكم دينكم » (١) فهو مكي . وما نزل بالمدينة وضواحيها فهو مدني .

أما المشهور عند أئمة التفسير فهو أن المكي من القرآن ما نزل قبل الهجرة وأن كان في غير مكة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان في خارج المدينة .

١ - نزلت الآية يوم عرفة في حجة الوداع .

وهذا هو الاصطلاح المعتمد عند جمهور المفسرين ولذا قالوا : ان
سورة الفتح مدنية وآية المائدة « اليوم اكملت لكم دينكم » مدنية كذلك
لنزولها بعد الهجرة وان نزلتا في مكة .

الطريق لمعرفة المكي والمدني :

بعد تحديد المراد من المكي والمدني نود أن نعرف الطريق الموصلة
لمعرفة كل منهما يقول الباقلاني : (انما يرجع في معرفة المكي والمدني
لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول لانه لم
يؤمر به) .

فالصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحي ونزوله ، وقد بلغهم
النبي ﷺ ما نزل عليه من الآيات وقد أخبرنا بما أخبرهم به ، بل أخبرونا
بالمكان والزمان الذي نزلت فيه الآيات بل بلغت بهم الدقة ان أخبرونا
بما نزل منه ليلاً أو نهاراً . وما نزل منه في سفر أو في حضر في سهل
أو في جبل بالصيف أو بالشتاء ، ما نزل ببيت المقدس والجحفة والطائف
والحديبية ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (والله الذي لا اله
غيره ما نزلت آية في كتاب الله الا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت) (٢) .

وروى معمر عن وهب بن عبد الله بن أبي الطفيل قال : شهدت
علياً رضي الله عنه يخطب ويقول : (سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء
الا أخبرتكم ، وسلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية الا وأنا أعلم أبليلاً
نزلت أم بنهار ، أفي سهل أم في جبل) .

فأمر معرفة المكي والمدني سماعي عن الصحابة رضوان الله عليهم
لأنهم شاهدوا الوحي ونزوله وعرفوا مكانه وزمانه ، وقولهم في ذلك له
حكم المرفوع عن النبي ﷺ لأن ذلك مما لا مجال للرأي فيه ، فاذا صح
القول عن الصحابي قبل ولا يعدل عنه الا بدليل أقوى يقتضي هذا
العدول .

وقد الحق الباقلاني قول التابعي فجعله كقول الصحابي لأن كبار
التابعين قد شاهدوا من شاهد نزول الوحي ، ونقلوا إلينا أقوالهم ،

٢ - أخرجه البخاري .

فاذا ما اخبرونا بان هذه الآية مكية قبل قولهم ، وقد قبل الامام الشافعي مراسيل كبار التابعين في الحديث ، أفلا يعتبر أخبارهم بمكان نزول الآيات .

سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : (نزلت في سفع ذلك الجبل) وأشار الى سلع (٣) فأخبار عكرمة بذلك لا يكون الا اذا سمعه من الصحابة الذين عرفوا هذا المكان فأخبروه بما رأوا وسمعوه ، ولا أدل على ذلك أن ابن مسعود رضي الله عنه على الرغم من القول الذي نقل عنه الا أن ما روى عنه نزر يسير ، وهو اذ لم يكنتم علماً في معرفته نفع للأمة ، فانه يكون قد علمت الى من سمع منه من التابعين رضوان الله عليهم .

يبقى القول في بعض الآيات التي اختلفت في زمن وموطن نزولها ، هذه الآيات قلائل قد أمكن معرفتها وفق معايير دقيقة كالنظر في طابع الآيات المكية والمدنية ومميزات كل منهما ومدى انطباق الآيات عليها ، أو بالتتبع التاريخي لسير الدعوة الاسلامية ومقتضيات كل مرحلة ، أو قرائن أخرى يعرفها المتمرس في القرآن وعلومه ، والله أعلم .

مميزات المكي والمدني :

تحدثنا عن الطريق الموصلة لمعرفة المكي والمدني ، وعرفنا أن السبيل الى ذلك هو السماع عن الصحابة رضوان الله عليهم أو عن كبار التابعين بيد أن هناك بعض الآيات التي اختلفت في مكيتها ومدنيته مما اضطر العلماء الى القول فيها بالاجتهاد والقياس وذلك وفق ضوابط أو قرائن يمكن بواسطتها الحكم عليها ، ولدى استقراء الآيات القرآنية وجد أن للمكي ضوابط ومميزات معينة تختلف نوعاً ما عن الطابع المدني أبرزها .

١ - أن السور المكية يغلب على آياتها القصر فسورة المدثر على سبيل المثال عدد آياتها ست وخمسون آية . وجل آياتها كلمتان أو ثلاث أو

٣ - الاتقان في علون القرآن ، ج١ ص ٩٠ . قال السيوطي : أخرجه أبو نعيم في الحلية .

بضع كلمات على الأكثر ولا يستثنى من ذلك الا آية واحدة رقم (٣١) :
 « وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا
 ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب
 الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون
 ماذا أراد الله بهذا مثلا . كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ،
 وما يعلم جنود ربك الا هو ، وما هي الا ذكرى للبشر » .
 أما الآيات المدنية فنحن نلاحظ طول آياتها (٤) ، واذا قارنا حزباً من
 الاحزاب القرآنية المكية فالحزب الذي فيه سورة الشعراء ، وحزباً مديناً
 كالذي فيه سورة الانفال ، نجد فارقاً عظيماً في عدد آيات الحزب الاول
 عن الثاني .

فعدد آيات سورة الشعراء المكية (٢٢٧) آية بينما سورة الانفصال
 (٧٥) آية . وبالاستقراء فان مجموع الآيات المدنية في القرآن لا يزيد
 عن ربع مجموع الآيات المكية ومع ذلك فاننا نجد مساحتها في المصحف
 تزيد عن الآيات المكية زيادة واضحة .

٢ - يغلب على السور المكية معالجة قضايا العقيدة ، واقامة الدليل
 والدعوة الى نبذ عبادة الأصنام وخلع المعتقدات الفاسدة . ونلاحظ ذلك
 بوضوح في سورة الانعام ، ويونس والفرقان ، والشعراء ، والقصاص .

٣ - كل سورة ذكرت فيها سجدة فهي مكية ، وكذلك التنصص الا
 قصة آدم وابليس المذكورة في البقرة فهي مدينية .

٤ - كل سورة ورد فيها لفظ (كلا) مكية وقد ذكر هذا اللفظ
 ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة وكلها في السور الاخيرة من القرآن
 كسورة اقرأ والمطففين وغيرها .

٥ - يغلب افتتاح النداء بالآيات المكية بـ يا أيها الناس ويا بني آدم .

٦ - كل سورة مبدوءة بأحرف التهجي مكية الا البقرة وآل عمران
 فهما مدينتان وسورة الرعد فيها خلاف .

٤ - اقرأ ان شئت أطول آية في القرآن على الاطلاق وهي آية الدين في
 سورة البقرة والتي تبلغ حوالي صفحة من القرآن .

أما السور المدنية فأهم مميزاتهما :

١ - من المعلوم أن المجتمع الإسلامي قد ظهر في المدينة لأول مرة وقد تعرضت الآيات القرآنية لبناء المجتمع وتأسيسه على أساس الأخوة ، لذا نجد أن كل سورة تتحدث عن المهاجرين والأنصار فهي مدنية كما عنيت الآيات المدنية بفضح المنافقين ومكائدهم وكشف اليهود وتعريتهم على حقيقتهم ، فكل سورة ذكر فيها النفاق فهي مدنية إلا سورة العنكبوت فإنها مكية عدا الآيات الاحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية وهي تتحدث عن المنافقين وهكذا ، فان كل سورة يذكر فيها أهل الكتاب من يهود ونصارى فهي مدنية .

٢ - ولما كانت مرحلة ما بعد الهجرة قد تميزت بقيام الدولة الإسلامية والمكلفة بنشر الإسلام ، ولذا فكل سورة فيها حكم يعالج قضايا التشريع والأحكام من عبادات ومعاملات ونظام للأسرة فهي مدنية وكل سورة فيها ذكر للجهاد وما يترتب عليه من أحكام دولية كحكم الأسرى والغنائم فهي مدنية وكذلك بقية الأحكام من سلم ومعاهدة وقد جاء النفس في هذه الآيات طويلاً ليوائم الموضوع الذي تعالجه .

٣ - ولما تكون المجتمع المؤمن المتميز عن المجتمعات الكافرة فناسب أن يكون النداء الموجه من الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا » وقل ان نجد نداء موجهاً لأهل المدينة مصدراً بيا أيها الناس إلا اذا كان في موضوع عام يتناول الناس جميعاً وقد جاء ذلك في سبعة مواضع منها :

أ - ما جاء في سورة البقرة قوله تعالى : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » (٥) . وقوله تعالى : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً » (٦) .

ب - ما جاء في سورة النساء قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » وقوله : « ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين » . وقوله : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم » .

٥ ، ٦ - سورة البقرة الآيات ٢١ و ١٦٨ .

ج - ما جاء في سورة الحجرات قوله تعالى : « يا أيها الناس
أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم
عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير » .

د - وأضاف العلماء على ذلك قوله تعالى في مطلع سورة الحج :
« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم »
فانها نزلت ليلا عند السفر لغزوة بني المصطلق وقد كان ذلك في السنة
السادسة للهجرة .

هذا وقد قام الشيخ محمد عزة دروزه وهو من المفسرين المعاصرين
بترتيب تفسيره المسمي : بالتفسير الحديث على وفق ترتيب النزول فجعل
السور المكية قبل السور المدنية بل جعلها أيضاً مرتبة حسب تاريخ
النزول فجعل العلق ثم القلم ثم المزل ثم المدثر الى أن ينتهي من السور
المكية ثم يبدأ بالسور المدنية حسب تاريخ النزول سورة البقرة ثم
الأنفال الى أن ينتهي من السور المدنية كلها ، ووجهة نظره في هذا
الترتيب أنه متسق مع المنهج الذي يعتقد أنه الأفضل في فهم القرآن
ويمكن متابعة السيرة النبوية خلال مراحلها التاريخية ويستفاد من هذا
التفسير تحرير وترتيب السور حسب مراحلها التاريخية وأيهما متقدم
ومتأخر ذلك لانه أعنتني عناية خاصة بدراسة هذا الموضوع بالذات لانه
جعله محور تفسيره .

الباب الثالث

جمع القرآن وتدوينه

المراد بجمع القرآن حفظه في الصدور وكتابته في السطور ويقول زيد بن ثابت رضي الله عنه : (فتتبعنا القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال) فقد أطلق على كتابة القرآن وتدوينه جميعاً كما أطلق على حفظه في الصدور جمعاً ، وقد تجوز العلماء على إطلاق لفظ الجمع على العهود الثلاثة الجمع في عهد النبي ﷺ بمعنى حفظه وكتابته كلما نزلت آية ، والجمع في عهد أبي بكر بمعنى جمع أوراقه وما كتب عليه في مكان واحد . والجمع في عهد عثمان بن عفان بمعنى نسخ المصاحف وإرسالها إلى الأمصار وهذه المرحلة هي التي تجوز العلماء في إطلاق لفظ الجمع عليها وسأتحدث عن هذه المراحل تباعاً .

الفصل الأول

الجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

لقد جمع القرآن في عهد النبي ﷺ حفظاً وكتابة ، أما حفظه في انصدور فقد تجلى في حفظ النبي ﷺ لهذا القرآن ، فقد كان يتشوق ويتأهف لنزول الوحي ، فما أن ينزل بالآيات الا ويعجل النبي ﷺ لحفظها لذا طمأنه الله سبحانه لحفظه وأرشده الى عدم الاسراع والتعجل بالقرآن قال تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرآنه فاتبع قرآنه » ثم ان علينا بيانه « (١) . وقال تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يلقى ايك وحيه » (٢) .

ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم جامع القرآن في قلبه الشريف وسيد الحفاظ في عصره المنيف ومرجع المسلمين في كل ما يعنيه من أمر القرآن وعلوم القرآن وكان صلى الله عليه وسلم يقرؤه على الناس على مكث كما أمره موله وكان جبريل يعارضه اياه في كل عام مرة وعارضه اياه في العام الأخير مرتين . قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما سمعنا رسول الله ﷺ يقول : (ان جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة وانه عارضني العام مرتين ولا أراه الا حضر أجلي) (٣) .

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد أخذ القرآن قلوبهم فأخذوا يتسابقون في حفظه - أحيوا ليلهم وسمع لبيوتهم في غسق الدجى كدوي النحل بالقرآن . بل عرفت منازلهم من سماع تلاوتهم للقرآن قال رسول الله ﷺ : اني لأعرف أصوات رفقة الاشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وان لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار) هذا ليلهم أما نهار الصحابة في المسجد فكان يسمع لهم ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم الرسول ﷺ بأن يخفضوا اصواتهم لئلا يتغالطوا ، ومن هنا كان عدد الحفاظ من الصحابة رضوان الله عليهم

١ - سورة القيامة بالآيات ١٦-١٩ .

٢ - سورة طه آية ١١٤ .

٣ - مناهل العرفان ، ج ١ ص ٢٣٤ .

كثيراً أشهرهم الخلفاء الأربعة والعبادة وعمرو بن العاص وابن الزبير ومعاوية وامهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة وغيرهم من المهاجرين ويكفي أن نعلم من كثرتهم أنه قتل منهم في يوم بئر معونة سبعون ويوم اليمامة مثلهم أي أربعين ومائة (٤) .

أما الحفظة من الأنصار فهم كثيرون أشهرهم أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصاري وأبو زيد (وهو قيس بن السكن) وبذلك يتضح لنا أن الحفاظ كثيرون وقد زادوا عن حد التواتر ومع ذلك فقد آثار أعداء الإسلام قديماً وحديثاً شبهة مفادها أن الحفظة من الصحابة لا يتجاوز عددهم أصـ، سابع اليد الواحدة . وتمسكوا بحديث رواه البخاري وغيره وظنوا أن هذا مستمسكاً لهم وما هو بذلك وقد رد علماؤنا كيدهم إلى نحورهم . أما الحديث فما ورد في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : (مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد) . فقد زعموا أن هؤلاء الأربعة هم الحفظة ولا أحد غيرهم ظناً منهم أن الحصر في هذا الحديث حصر حقيقي .

والواقع أن هذا الحصر نسبي لا حقيقي ويدلنا على ذلك ما رواه أنس نفسه وقد سأله قتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال : (أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت وأبو زيد) . فقد ذكر في هذه الرواية أربعاً غير أنه ذكر أبي بن كعب بدلاً من أبي الدرداء في الرواية الأولى . وهو صادق في كلتا الروايتين لأنه لا يعقل أن يكذب نفسه فتعين أنه يريد من الحصر الذي أورده الحصر الإضافي ، فمرة ذكر أبا الدرداء ومرة ذكر أبي بن كعب . وهذا التوجيه وإن كان بعيداً ، إلا أنه يتعين المصير إليه جمعاً بين هاتين الروايتين . وبينهما وبين روايات ذكرت غير هؤلاء . ومن هنا قال الماوردي : لا يلزم قول أنس رضي الله عنه : (لم يجمعه غيرهم) . أن الواقع كذلك في نفس الأمر ، لأنه لا يمكن الاحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفريقهم في الأمصار ولم يتم له ذلك إلا إذا كان قد لقي كل واحد منهم وأخبر عن

٤ - هذه الاسماء قد وردت في أحاديث صحيحة في البخاري عن أنس وفي النسائي وأبي داود وقد أورد اسم أبو زيد بانه قيس بن السكن

نفسه انه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ وهذا في غاية البعد في العادة وكيف يكون الواقع ما ذكر وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ يقول : (خذوا القرآن عن أربعة : عن عبد الله بن مسعود وسالم ، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب . والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهما الأولان واثنان من الانصار وهما الأخيران) ، أ ه .

ولعل مراد الماوردي بهذا نفي الحصر الحقيقي وتوجيه الحصر الاضافي ، ويؤكد ذلك حديث آخر رواه أبو داود عن محمد بن كعب القرظي قال : (جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الانصار : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء وأبو أيوب الانصاري) .

وهنا اجوبة كثيرة عن هذه الشبهة وقد أجاب الامام أبي بكر الباقلاني بأجوبة ثمانية ولكن ابن حجر ضعفها وغيره فندها . ونكتفي في النهاية بكلمة للمازري حيث يقول : (وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه ، فانا لا نسلم حمله على ظاهره ، ساحناه ولكن من أين لهم ان الواقع نفس الأمر كذلك ؟ سلمناه لكن لا يلزم من كون كل من الجسم الغفير لم يحفظه كله ، الا يكون حفظ مجموعة من الجسم الغفير . وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل اذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى) . وقال القرطبي : قد قتل يوم اليمامة سبعون وقتل في عهد النبي ﷺ في بئر معونة مثل هذا العدد قال : وانما خص أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم (٥) .

هذا وبعد الحديث عن الجمع بحفظ القرآن وتلاوته نتحدث عن الجمع بمعنى كتابة القرآن وتدوينه . لم تكن عناية النبي ﷺ وأصحابه بحفظ القرآن واستظهاره لتمنعهم من توثيق القرآن بكتابه وتدوينه ، فقد اتخذ الرسول ﷺ من أصحابه كتبة للوحي ، فيها هو زيد بن ثابت وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي بن كعب وثابت بن قيس وخالد بن الوليد . فقد كان النبي ﷺ يأمر من حضر منهم بالكتابة لما ينزل عليه من القرآن ، فيكتب الكاتب : أما على العصب أو اللخاف والرقاع وقطع الأديم وعظام

٥ - مناهل العرفان ، ج ١ ص ٢٣٨ .

الاكتاف والاضلاع (٦) . ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله وكان مجموعاً في صحف قال تعالى : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » أي يقرأ قراطيس مطهرة من الباطل ، فيها مكتوبات مستقيمة قاطعة بالحق والعدل .

وقال أيضاً : (كلا انها تذكرة ، فمن شاء ذكره في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة كرام بررة) أي ان هذه تذكرة مثبتة في صحف مكرمة عند الله ، مرفوعة المقدار منزهة عن أيدي الشياطين ، قد كتبت بأيدي كتبة أتقياء ، وما كتب بالصحف كان مؤلفاً . روي عن ابن عباس أنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أنزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب ، فقال : ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا) . وعن زيد بن ثابت قال : كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع . وخلاصة ما تقدم يتبين لنا أن القرآن الكريم قد حفظ في صدور الكثير من الصحابة . وقد كتب القرآن كله فتحقق جمع القرآن في عهد النبي ﷺ حفظاً وكتابة ، سئل محمد بن الحنفية ما ترك النبي ﷺ فقال : (ما ترك الا ما بين الدفتين . أي القرآن) .

٦ - العسب : بضم العين والسين - جمع عسيب - وهو جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطريف العريض . اللخاف : بكسر اللام جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء : وهي الحجارة الرقيقة . قال الخطابي : صفائح الحجارة ، والرقاع . جمع رقعة : وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد . والأديم : الجلد . والاكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم . (أنظر القرطبي ج ١ ص ٥٠) .

الفصل الثاني

جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق

لم يشعر الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي ﷺ أنهم في حاجة إلى جمع القرآن في كتاب واحد حتى كثر القتل في الحفاظ في حروب الردة . فقد أستشهد فيها خلق كثير من القراء والحفظة ، قيل انه قتل سبعون وقتل خمسمائة ، وأياً كان عدد التثني قد هال المسلمين فخشي عمر بن الخطاب من ذلك على ضياع بعض الصحف ، ففكر في عرض الفكرة على أبي بكر ليقوم بجمع القرآن . روى البخاري أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : (أرسل الي أبو بكر مقتل أهل اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب عنده . قال أبو بكر رضي الله عنه : (أن عمر اتاني فقال : ان القتل قد استحر « اشتد » يوم اليمامة بقراء القرآن . واني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن واني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يشعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : هذا والله خير) فام يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : انك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ . فتتبع القرآن فوالله لو كفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني ، حتى شرح صدري للذي شرح له صدري أبي بكر وعمر ، فتتبع القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم» (١) فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر ١٠ هـ .

١ - سورة التوبة الآيات : ١٣٨ ، ١٣٩ .

اذن لقد قام زيد بن ثابت بالجمع وكان يعتمد في جمعه على أمرين :

١ - ما كان محفوظاً عند الصحابة .

٢ - ما كان مكتوباً بين يدي رسول الله ﷺ . ولا يقبل المكتوب الا بشهادة عدلين .

روى أبو داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال :
(قدم عمر ، فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به) . رواه الترمذي أيضاً
ان الآية المفقودة : « ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه »
الا أن القرطبي قال : ان الرواية الأولى اصح يعني لقد جاءكم رسول . الخ
وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والالواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان . ويفسر الامام الحافظ بن حجر المراد بالشاهدين : الحفظ والكتابة . وقال السخاوي في مجال القراء ما يفيد أن المراد بهما رجلان عدلان ، قال : (المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ) « ٢ » .

يتضح لنا مما تقدم ان زيد بن ثابت لم يعتمد على الحفظ وحده بل تحرى ان يكون المحفوظ مكتوباً بين يدي رسول الله ﷺ لذا لم يثبت آخر سورة التوبة . وان كان هو يحفظها وكان كثيراً ما يسمع رسول الله ﷺ يرددتها في الصلاة لم يفعل ذلك بل أراد أن يتوثق ان المحفوظ في الصدور موجود ومسطور في الصحف . وهذا مبالغة في الاحتياط والتحري في الحفظ لعين ما نقل عن الرسول ﷺ . قال علي بن أبي طالب : (أعظم الناس في المصاحف أبو بكر ، هو أول من جمع كتاب الله) ورحم الله أبا بكر لاشرافه وعمر بن الخطاب لاقتراحه ، وزيد بن ثابت لتنفيذه (٣) . رضي الله عن الصحابة وجزاهم عن هذه الأمة خير الجزاء .

٢ - مناهل العرفان ، ج ١ ص ٢٤٥ .

٣ - مناهل العرفان ، ج ١ ص ٢٤٦ .

الفصل الثالث

الجمع في عهد عثمان

لئن كان جمع أبي بكر للقرآن خوفاً من ضياعه بموت حفظة القرآن فان جمع عثمان بن عفان كان خوفاً من اختلاف الأمصار في وجوه القرآن حين قرأه كل مصر بلغة وبقراءة تختلف عن قراءة مصدر آخر وأدى ذلك الى تخطئة بعضهم بعضاً وفي قصة حذيفة بن اليمان خير بيان لأسباب الجمع أو النسخ بتعبير أصح .

روى الامام البخاري بسنده عن ابن شهاب ان انس بن مالك حدثه ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح ارمينية واذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ادرك هذه الأمة قبل ان يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان الى حفصة ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن العارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم وأنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة فأرسل الى كل افق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق) .

١ - انه ذكر سبب الجمع والداعي الى نسخ المصحف الا وهو منع التمازي والاختلاف في القراءات بسبب تفرق الصحابة في الامصار ، فقد كان كل فريق يقرأ بما روى له من الصحابي في بلده ويقرأ فريق من أهل العراق بما روى له فيختلف الشامي مع العراقي والمكي مع المدني وأظهر

١ - تفسير القرطبي ، ج ١ ص ٥١ .

بعضهم تكفير بعض والبراءة منه وتلاعنوا فأشفق حذيفة مما رأى منهم فلما قدم المدينة فيما ذكر البخاري والترمذي دخل على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك (١) .

وفي هذا خير بيان لباعث على الجمع .

٢ - أن عثمان بن عفان قد جعل على رأس الثائمين على الجمع زيد بن ثابت وهو من كتبة الوحي للرسول ﷺ وهو الذي قام بالجمع في عهد أبي بكر وبخبرته وعدالته وعقله كما وصفه أبو بكر (أنك شاب عاقل لا تنهك) بكل هذا أصبح موضعاً للثقة فولاه عثمان الأمر ولكنه أمر الكتبة إذا اختلفوا في كتابة كلمة أن يكتبوها بلغة قريش كما في كلمة (التابوت والتابوه) (٢) .

٣ - أن هذه الرواية لم تحدد عدد المصاحف وهناك رواية قد اطلقت دون تحديد (وكتب المصاحف ونسخ منها عثمان نسخاً قاله ابن عطية وقال غيره سبعة وقيل أربعة وقال القرطبي وهو الأكثر) (٣) . ولكن هذا القول يعوزه الدليل وأن ذهب إليه الأكثر والحديث الذي سقناه هو أصح ما في هذا الباب وقد جاء فيه النص هكذا : (فأرسل إلى كل أفق بمصحف ولا شك أنه أرسل هذه المصاحف لرفع الخلاف في كل أفق . والافاق المعروفة آنذاك : المدينة والتي استبقى فيها نسخة مكة والكوفة والبصرة والشام واليمن ومصر ، فهذه آفاق لا شك أنه نال كل أفق نسخة ، لذا فنحن نميل ، بل نصحح الروايات التي تنفق وهذا المنطق السليم . والمصاحف التي أرسلها نسخة عن الأصل فهي نقل لعين ما نقل عن رسول الله ﷺ كما هو) .

٤ - في هذه الرواية أخبار عن حرق عثمان للمصاحف سواء أكانت صحفاً أم مصاحف ، وفي عمله جمع للمسلمين على المصحف الموحد الثابت عن رسول الله ﷺ وترك ما تراه لما حوته من قراءات شاذة أو تفسيرات زائدة .

٢ - تفسير القرطبي ، ج ١ ص ٥٤ .

٣ - المرجع السابق نفس الصفحة .

ولقد غالت الشيعة في قضية حرق المصاحف وزعمت ما زعمت ، وكان الأخرى بهم أن يقفوا عن هذه المغالاة ، وأن يستمعوا الى قول الامام علي كرم الله وجهه : فيما ذكره ابو بكر الانباري في كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال : سمعت علي بن ابي طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس اتقوا الله وأياكم والغلو في عثمان ، وقولكم : حراق المصاحف فوالله ما حرقها الا عن ملامنا أصحاب رسول الله ﷺ . وعن عمير بن سعيد قال : قال علي بن ابي طالب : (لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان) (٤) .

ولم يكتف بعض الشيعة بالطعن في عثمان ، بل ان منهم من زعم اسقاط شيء من القرآن وتحريف بعض آياته ، وتقول بعض الشيعة لأن منهم من رفض هذا الزعم كما ورد في كتاب ابي جعفر الام : (ان اعتقادنا في جملة القرآن الذي اوحى به الله تعالى الى نبيه محمد ﷺ هو كل ماتحتويه دفنا المصحف المتداول بين الناس وعدد السور المتعارف عليه هو (١١٤) سورة أما عندنا فسورتا الضحى والشرح تكونان سورة واحدة وكذلك سورتا الفيل وقريش أيضاً سورتا الانفال والتوبة . أما ما ينسب الينا الاعتقاد في ان القرآن أكثر من هذا فهو كذب) ولقد شهد المستشرقون على قطيعة القرآن وثبوته دون تغيير ولا تبديل يقول جوير : (ان المصحف الذي جمعه - نسخه - عثمان قد تواتر الينا بدون تحريف ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير على الاطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الاسلامية فلم يوجد الا قرآن واحد لجميع الفرق الاسلامية المتنازعة ، وهذا الاستعمال الجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا) .

ويقول ثوبلوا : (ان القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر) (٥) .

-
- ٤ - القرطبي ، ج ٥٤١ .
٥ - مدخل الى القرآن الكريم للمرحوم الدكتور دراز ص ٣٩ ، القرآن ونصوصه ص ٨٧-٨٨ .

الفصل الرابع

رسم المصحف

نقصد برسم المصحف أو كما يسميه بعض العلماء الرسم العثماني انه الوضع الذي كتبت فيه بعض كلمات القرآن كما أقرها النبي ﷺ وذلك لأن الرسم توقيفي والدليل على ذلك :

١ - ان النبي ﷺ كان له كتاب يكتبون وقد كتبوا القرآن بهذا الرسم وأقرهم النبي ﷺ على كتابتهم . وقد يقال ان الرسول ﷺ كان له كتاب يعرفون الخطوط فكانوا يصفونها له علاوة على انه كان يعرف أشكال الحروف كما ورد في بعض الأحاديث .

٢ - اجماع الصحابة رضوان الله عليهم فان أبا بكر الصديق لم يحدث أي تغيير في أية كلمة من الكلمات ، كما التزم الناسخون للمصاحف زمن عثمان بن عفان بنفس الرسم الذي كان زمن النبي ﷺ والذي أصبح سنة متبعة على التوالي وعلى مر الايام والعصور حتى قال الأئمة بتحريم مخالفته قال الامام أحمد : (يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو أنف أو غير ذلك وقد رفض مالك أن يكتب على الهجاء ولكنه قال : يكتب على الكتابة الاولى) (١) .

٣ - نجد بعض الكلمات التي يجب ان تكون متماثلة في الكتابة ولكنها في رسم القرآن مختلفة فالعدول عن كتابتها متماثلة لا يظهر فيه أية علة لهذا العدول سوى ان كتابتها توقيفية وليست اصطلاحاً . ولذلك لا يقال : لماذا كتبت كلمة (الربا) في القرآن بالواو والالف (الربوا) ولم تكتب بالياء أو الألف ولا يقال ما سبب زيادة الألف في مائة دون (مئة) وزيادة الياء في (بأبيكم) وزيادة الألف في (سعوا) في سورة الحج ونقصانها من (سعو) في سورة سبأ . وزيادتها في (عتو) في سورة الفرقان وزيادة الألف كذلك في (يعفوا الذي) ونقصانها من (يعفو عنهم) في سورة النساء .

١ - مناهل العرفان ، ج ١ ص ٣٧٢ .

ولا يقال كذلك : ما هو وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض كحذف الألف من (قرءنا) بيوسف والزخرف وأثبتاتها في سائر المواضع .

فهذا الاختلاف في كتابة الكلمة الواحدة بين سورة وسورة من حيث الرسم مع عدم اختلاف المعني واللفظ دليل على أنه فعل مرده الى السماع لا الى الاجتهاد والفهم وكل ما كان مرده للسماع فهو توقيفي .

هذا وقد نقل الاختلاف في ترتيب السور ولكنه لم ينقل خلاف في رسم المصحف ، أما ما قاله ابن خلدون بأن رسم المصحف اجتهادي اذ لم يرد دليل من القرآن أو السنة يحرم مخالفة الرسم فقول باطل لأنه وان لم يرد نص من القرآن أو السنة يحرم مخالفة الرسم الا ان اقرار الرسول ﷺ للرسم القرآني والتزام الصحابة بهذا الرسم واجماعهم على عدم مخالفته هو أعظم دليل على ان رسم القرآن توقيفي وهو سر من الأسرار خص الله كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية .

بقي القول في حكم كتابة بعض آيات القرآن استشهاداً أو كتابتها على اللوح للتعليم أو غير ذلك مما يكتب في غير المصاحف ، ان حكم ذلك جائز لأن النبي ﷺ حين أمر كتابه ان يكتبوا للملوك والرؤساء كانت كتابتهم على رسم الكتابة العادية وعلى غير الرسم الذي كانوا يكتبون به المصاحف التي يكتبون فيها القرآن حين نزوله .

مع ان الملمي واحد والكتاب هم هم ، فالرسم القرآني يجب التزامه في كتابة المصحف وحده دون غيره ولا يقاس عليه لأنه أمر توقيفي لغير علة فلا يدخله القياس .

الفصل الخامس

ترتيب الآيات والسور القرآنية

- نتحدث أولاً عن ترتيب الآيات والتي لم يرد فيها خلاف .
- وثانياً عن الخلاف في ترتيب السور .

أولاً - ترتيب الآيات :

لا بد من توضيح معنى الآية لغة : ومن معانيها :

- ١ - العلامة : ومنه قوله تعالى : « أن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم » (١) .
- ٢ - العبرة : ومنه قوله تعالى : « قد كان لكم آية في فتنين آلتنا » (٢) .
- ٣ - المعجزة : ومنه قوله تعالى : « سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » (٣) .
- ٤ - الدليل والبرهان : ومنه قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم » (٤) .

وغير ذلك من المعاني وأنا نلاحظ مناسبة بين هذه المعاني اللغوية وبين معناها الاصطلاحي لأن الآيات القرآنية علامة على صدق من جاء بها . وفيها عبرة لمن أراد أن يتذكر وهي معجزة خالدة وقد عرفها بعض العلماء بأنها : طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها لها مبدأ ومقطع وهي متدرجة في سورة وتعرف توقيفاً على الأرجح وفي هذا المعنى الاصطلاحي للآية نظر .

-
- ١ - سورة البقرة آية ٣٤٨ .
 - ٢ - سورة آل عمران آية ١٣ .
 - ٣ - سورة البقرة آية ٢١١ .
 - ٤ - سورة الروم آية ٢٢ .

فان الآية قد لا تكون منقطعة عما قبلها ولا عما بعدها ، بل قد ترتبط
الآية بالآية لفظاً علاوة على ارتباطها بالمعنى وقد كان هذا سبباً في اختلاف
العلماء في عدد الآيات .

فالنبي ﷺ كان يتف على رؤوس الآي تعليمياً لأصحابه انها رؤوس
أي حتى اذا علموا ذلك وصل صلى الله عليه وسلم الآية بما بعدها طلباً
لتمام المعنى فيظن بعض الناس ان ما وقف عليه النبي ليس بفاصلة
فيصلها بما بعدها معتبراً ان الجميع آية واحدة والبعض يعتبرها آية مستقلة
فلا يصلها بما بعدها وعلى هذا فان التعريف بالآية بانها منقطعة عما قبلها
وعما بعدها ليس بصحيح .

ترتيب الآيات :

مما لا ريب فيه ان ترتيب الآيات في سورها وشكل السور بالنسبة
لعدد آياتها ووضعها توقيفي كان بتوقيف من النبي ﷺ وقد كان يأمر
كتاب الوحي بذلك (ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي ذكر فيها كذا)
وكانت السورة تختم ويبدأ بسورة غيرها بتوقيف من الله تعالى بواسطة
جبريل . وعن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ لا يعلم ختم السورة حتى
ينزل « بسم الله الرحمن الرحيم » وفي رواية فاذا انزلت بسم الله الرحمن
الرحيم علموا ان السورة قد انقضت ، فهذه الاحاديث تدل على ان ترتيب
الآيات في سورها وشكل السور بعدد آياتها ووضعها توقيفي وعلى هذا
انعقد اجماع الصحابة .

قال الزركشي : في البرهان وأبو جعفر في المناسبات ترتيب الآيات
في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين (٥) .

ترتيب السور:

معنى السورة : لفظ مفرد يجمع على سور كغرفة وغرف وهي بمعنى
العلو والرفعة وما طال من البناء وحسن .

٥ - مناهل العرفان ، ج ١ ص ٣٤٠ .

أما تعريفها اصطلاحاً : فهو طائفة من الآيات القرآنية ذات مطلع ومقطع أولها فاتحة وخاتمة (٦) .

وسور القرآن تختلف طولاً وقصراً فسورة الكوثر هي أقصر سنور القرآن إذ يبلغ عدد آياتها ثلاث آيات ، وسورة البقرة أطول سنور القرآن وقد تجاوزت الجزئين ، وقد قسم القرآن حسب طول السنور وقصرها إلى أربعة أقسام :

١ - السور الطوال وهي سبع : سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، أما السورة السابعة فقبل أنها سورة الأنفال والتوبة معاً . إذ لم يكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم وقيل سورة يونس .

٢ - المثون : وهي كل سورة تزيد آياتها عن مائة .

٣ - المثاني : وهي التي تلي المثين أي ما كان عدد آياتها أقل من مئة وسميت بالمثاني لأنها تثنى (أي تكرر) أكثر مما تثنى الطوال والمثون .

٤ - المفصل : وهي أواخر القرآن ابتداء من سورة (ق) أو الحجرات وانتهاء بسورة الناس (٧) .

ترتيب السور :

لا خلاف بين العلماء في ترتيب الآيات ولكنهم اختلفوا في ترتيب سور القرآن على ثلاثة أقوال :

١ - ترتيب جميع السور توقيفي واستند إلى أدلة منها معارضة جبريل القرآن على النبي ﷺ وهذا يعني أن جبريل كان يقرأ القرآن مرتباً بسوره وآياته . ولا بد من ترتيب في القراءة .

وأقوى ما يستدلون به : إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على المصحف العثماني وحرقتهم لجميع المصاحف المختلفة الترتيب في السور .

٦ - مناهل العرفان ، ج ١ ص ٣٤٤ .

٧ - صحيح النووي .

٢ - ترتيب جميع السور اجتهادي ويستدلون على ذلك باختلاف مصاحف الصحابة في ترتيب السور ، ولو كان الترتيب توقيفياً لما اختلفوا . وكذلك ما روي عن عثمان رضي الله عنه ان النبي ﷺ قبض ولم يبين للصحابة أمر سورتي الانفال وبراءة . وكانت الانفال من أول ما نزل في القرآن وكانت براءة من آخر ما نزل . ولما ترك النبي ﷺ البيان قال عثمان : كانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت انها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها في السبع الطوال . فهذه القصة تدل على ان ترتيب القرآن كان أمراً اجتهادياً .

٣ - ترتيب بعض السور توقيفي والبعض الآخر اجتهادي . وقد وصف الزرقاني هذا القول بأنه أمثل الآراء وأليه ذهب فطاحل العلماء (٨) . وأصحاب هذا الرأي وان اتفقوا على هذا التقسيم الا أنهم اختلفوا في مقدار التوقيفي والاجتهادي ، وعلى أية حال فان الذي لا مجال للشك فيه ان كتابة القرآن بترتيبه المعروف في السور والآيات قد اجمعت عليه الامة منذ الجمع الأول والثاني وحتى عصرنا الحاضر .

الباب الرابع
أقسام القرآن

1870

1871

1872

لمحة تاريخية :

منذ أن انزل القرآن وعيون المؤمنين عنه لا تنام ، تلاوة وتدبراً ودراسة وتديساً . فقد فاقت عنايتهم به حد الوصف ، فمنهم من عمد الى تفسيره كلمة أو آية أو آيات أو جزءاً أو أجزاء ، ومنهم من فسر جله بل كله ، ومنهم من ألف في نوع من أنواع علوم القرآن فعلي بن المديني شيخ الامام البخاري ألف في أسباب النزول . وأبو عبيد القاسم بن سلام قد تناول قضية النسخ والمنسوخ وأبو بكر السجستاني قد ألف في غريب القرآن ، وعلي بن سعيد الحوفي في اعرابه ، وأبو القاسم عبد الرحمن في مبهمه ، وأبو عبد الله محي الدين الكافيجي في معنى التفسير والتأويل ، وجلال الدين الباقيني في مواقع العلوم من مواقع النجوم وقد ضمنه السيوطي في كتابه (التحبير) .

ويرى الزرقاني : أن أول عهد ظهر فيه هذا الاصطلاح هو القرن السابع . ثم يستدرك ويقدم تاريخ هذا الفن أي علوم القرآن نحو قرنين من الزمان وذلك أنه اطلع على كتاب البرهان في علوم القرآن لعلي بن ابراهيم الشهير بالحوفي المتوفي سنة ٣٣٠هـ . وعلى آية حال فإن القرن السابع كانت بداية ازدهار هذا العلم وذلك لأن الكتب قبل ذلك لم تكن مؤلفات تامة بالمعنى المصطلح عليه وذلك مثل كتاب (فنون الأفتان في علوم القرآن) لابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ ، قال السيوطي عنه بأنه لم يقرأ منه ولكننا حين رجعنا الى المخطوطة في دار الكتب المصرية لم نجد فيه شيئاً يستحق هذه الاشادة من السيوطي .

وعلى هذا فمن الممكن اعتبار القرن السابع العصر الذهبي . فقد كتب علم الدين السخاوي كتابه : جمال القراء . وأبو شامة كتابه : المرشد الوجيز . ثم أهل القرن الثامن ببدر ذلك الزمان بدر الدين الزركشي المتوفي سنة ٧٩٤هـ والذي ألف كتاباً حافلاً لنا من خير الكتب : البرهان في علوم القرآن . وقد سر السيوطي بهذا الكتاب وقوي عزمه في

كتابة مصنفة : الاتقان في علوم القرآن • وتعتبر الكتب التي ألقت قبيل
الزركشي والسيوطي نبذ يسيرة وهي كما وصفت كحبة رمل في جنب
رمل عالج •

ثم توالت المؤلفات وكثرت في هذا القرن فمنها كتاب مناهل العرفان
في علوم القرآن للزرقاني ، وكتاب النيا العظيم للمرحوم دراز ، والبيان
للجائري • ومباحث في علوم القرآن للاستاذ عبد الوهاب غزلان • وآخر
للدكتور صبحي الصالح ، وآخر للدكتور عدنان زرزور وغيرهم كثير •

الفصل الأول

أقسام القرآن

لا يكفي معرفة أقسام اللغة للاستدلال بالقرآن ، لأن نصوصه نصوص تشريعية ، فلا يتأتى لمفسر أو مجتهد أن يفسر أو يفقه شيئاً من القرآن إلا إذا احاط بآيات القرآن الكريم ، وكيفية دلالتها على المعاني ، ومعرفة الحقائق الشرعية والعرفية لأنها مقدمة على الحقائق اللغوية ، فالحقيقة الشرعية أولاً ، والحقيقة العرفية ثانياً ، والحقيقة اللغوية ثالثاً وأخيراً .

ولا بد من معرفة منطوق القرآن ومفهومه عامه وخاصه ، مطلقة ومقيدة ، محتملة ومبينة ، محكمة ومتشابهة . وسنتعرض لهذه الأبحاث لنرى دقة القرآن الكريم في دلالة خطابه على المعاني إذ لا غنى عنها للباحث في علوم القرآن ، وسنتحدث عنها بإيجاز تاركين التفصيل إلى أمهات الكتب في هذا المجال .

المبحث الأول

المنطوق والمفهوم

١ - المنطوق :

عرفه العلماء بأنه : (ما دل عليه اللفظ في محل النطق) .

مثاله قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » (١) ، فقد دلت الآية بمنطوقها وجوب غسل الوجه واليدين إلى المرافق .

١ - سورة المائدة ، آية ٦ .

والمنطوق ، اذ دل لفظه على تمام معناه ، فالدلالة مطابقة كقوله تعالى :
« فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة » (٢) .

وان دل اللفظ على جزء المعنى فهو التضمن . وان دل اللفظ على الحكم بطريق الالتزام فهو دلالة التزام كقوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن » (٣) ، فان من كلف بالنفقة يلزم ان يثبت له نسب المولود ويجب أن يراعى في دلالة المنطوق في القرآن حمل دلالة القاطنه على المعاني الشرعية والتي تكفل الشارع الحكيم ببيانها ، فاذا ما ورد في القرآن : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » (٤) وجب تفسير الصوم بمدلوله الشرعي لا اللغوي .

فاذا لم يكن للفظ مدلول شرعي وجب أخذ معناه من الحقيقة العرفية الموجودة في عهده صلى الله عليه وسلم فان تعذر ذلك حمل على المدلول اللغوي .

٢ - المفهوم :

عرفه العلماء بانه : (ما دل عليه اللفظ لا في مجال النطق) .

فالمعنى المدلول عليه لم يؤخذ من اللفظ المنطوق مباشرة ، بل هو مسكوت عنه ، وهذا المعنى المستفاد المسكوت عنه ان كان موافقاً في الحكم للمعنى المستفاد من المنطوق ، فهو مفهوم الموافقة ، وان كان مخالفاً فهو مفهوم المخالفة ، وعلى هذا فالمفهوم قسمان :

القسم الأول :

مفهوم الموافقة ، أو ما يسمى بفحوى الخطاب أو لحن الخطاب . مثاله قوله تعالى : « ولا تقل لهما اف ولا تنهرهما » (٥) . فهذه الآية تحرم

- ٢ - سورة البقرة ، آية ١٩٦ .
- ٣ - سورة البقرة ، آية ٢٣٣ .
- ٤ - سورة البقرة ، آية ١٨٣ .
- ٥ - سورة الاسراء ، آية ٢٣ .

التأفف والتدبر للوالدين وهذا هو منطوقها ، وهي تحرم كذلك الضرب والإيذاء لهما ، وإن لم ينطق بهما إلا أن هذا السكوت عنه أولى بالتحريم . وهذا هو المفهوم ، وهو مفهوم موافقة لأن حكم ضرب الوالدين موافق لحكم التأفف والنهر لهما في التحريم ، هذا ما يسميه بعض الفقهاء فحوى الخطاب ويطلق عليه بعضهم لحن الخطاب ، وقد يكون مفهوم الموافقة السكوت عنه مساوياً لحكم المنطوق . كقوله تعالى : « **ان الذين ياكلون أموال اليتامى ظلماً إنما ياكلون في بطونهم ناراً** » (٦) . فالآية بمنطوقها قد حرمت أكل أموال اليتامى ظلماً ، ويفهم منها تحريم احراق أموال اليتامى إذا كان مما يحرق ، وتحريم الركوب إذا كانت مما يركب فتحريم الحرق والركوب وغير ذلك مساو لحكم أكل مال اليتيم .

القسم الثاني :

مفهوم المخالفة ، أو كما يسميه ابن ورك دليل الخطاب .

وهو كما عرفه العلماء دلالة اللفظ على ثبوت حكم للمسكوت عنه مخالف لما دل عليه المنطوق لانقضاء قيد من القيود المعتبرة في الحكم (٧) . وقد اختلف في أنواع مفهوم المخالفة تبعاً للقيود المعتبرة وأصح الأقوال انها أربعة أنواع هي :

١ - مفهوم **الصفة** : وهو تعليق الحكم بالصفة المفهومة يشعر بانعلية فاذا انتفى الوصف انتفى الحكم ، واذا ثبت الوصف ثبت الحكم مثاله قول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** » (٨) فالآية بمنطوقها تدل على وجوب التبين اذا كان المخبر فاسقاً ومفهوم المخالفة اذا كان المخبر عدلاً وثقة فلا يجب التبين .

٢ - مفهوم **الشرط** : وهو تعليق الحكم على الشيء بكلمة (ان) أو غيرها من أدوات الشرط .

٦ - سورة النساء ، آية ١٠ .

٧ - ابن الحاجب مع العضد والسعد ، ج ٢ ص ١٧٢ .

٨ - سورة الحجرات ، آية ٦ .

فلا خلاف ان المشروط لا يثبت الا بيبوت الشرط فاذا انتفى الشرط
انتفى المشروط فقوله تعالى في سورة الطلاق : « فان كُنْ أُولَاتٍ حَمْلًا
فانفقوا عليهن » (٩) ، يدل على وجوب النفقة اذا كانت المرأة حاملا فاذا
لم يتحقق الحمل فلا تجب النفقة لعدم تحقق الشرط . وقد اتفق العلماء
على الغاء مفهوم المخالفة من الشرط اذا جاءت نصوص أخرى تدل على ابطاله
وعدم اعتباره كقوله تعالى : « ولا تکرهوا فتياتکم على البغاء ان اردن
تحصنًا » (١٠) فان منطوق الآية تدل على تجريم اكره الفتيات على الزنا
ان اردن التحصن والتعفف .

ومفهوم المخالفة المستفاد من الشرط المذكور انه اذا لم يردن وملن
الى الفساد والفاحشة فلا مانع من اكراههن على الزنا .

فهذا المفهوم باطل ومعظم بصريح قول الله تعالى : « ولا تقربوا الزنا
انه كان فاحشة » (١١) فلا يجوز اكراههن على الزنا سواء اردن التحصن
والتعفف أم لم يردن .

٣ - مفهوم الغاية : وهو تعليق الحكم بغاية فيكون ما بعدها مخالفا
لما قبلها مثال قوله الله تعالى : « ثم اتموا الصيام الى الليل » (١٢) فمنطوق
الآية يفيد وجوب الصيام في النهار الى ابتداء الليل أي المغرب وهي تدل
بمفهومها عدم وجوب الصوم بعد دخول الليل وكذلك قوله تعالى :
« ولا تقربوهن حتى يطهرن » (١٣) فمنطوقها النهي عن قرب النساء ايام
الحيض الى ان تطهر ومفهومه اباحة قربهن بعد طهارتهن .

٤ - مفهوم العدد : وهو تعليق الحكم بعدد مخصوص يدل على ان
ما عدا ذلك العدد بخلافه ومثاله قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات

-
- ٩ - سورة الطلاق ، آية ٦ .
 - ١٠ - سورة التوبة ، آية ٣٤ .
 - ١١ - سورة الاسراء ، ص ٣٢ .
 - ١٢ - سورة البقرة ، آية ٢٢٢ .
 - ١٣ - سورة النور ، آية ٤ .

ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة « (١٤) • فقد قيد جلد
القاذف للمحصنات بثمانين جلدة وهو يدل على تحريم ما زاد على الثمانين •

المبحث الثاني

العام والخاص

تعريف العام : هو اللفظ الموضوع الذي يستغرق جميع ما يصلح
له من أفراد من غير حصر كمي أو عددي •

ولقد ورد في اللغة العربية صيغ خاصة تدل على العموم وقد وردت
جميعها في نصوص القرآن الكريم ، نذكر منها :

١ - اسم الجنس اذا عرف بال كقوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا
كل واحد منهما مائة جلدة » (١٥) •

١٤- يبحث بعض العلماء دلالة الاقتضاء في نوع ثالث ونحن نذكرها
تماماً للمنفعة ، عرفت دلالة الاقتضاء بانها دلالة اللفظ على معنى
خارج يتوقف عليه صدقه أو صحته الشرعية أو العقلية فيازم تقدير
هذا المحذوف حتى يستقيم الكلام لضرورة صدق المتكلم مثاله قول
الله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » فان وجود
سبيل للكافرين على المؤمنين قد تحقق وقد وجد أيام الرسول ﷺ في
مكة حيث كان الحكم فيها للكافرين ووجد في بلاد الأندلس حيث
حكم الكفار المسلمين وقد وجد سبيل للكافرين على المسلمين حيث
حكمهم الاستعمار البريطاني الكافر فنفي ان يكون للكافرين على
المؤمنين سبيل بلفظ لن المفيدة لتأييد ممتنع لتحقيق وقوعه فلا بد
ان يكون نفياً لحكم يمكن نفيه الا وهو نفي جواز حكم الكافر للمسلم
وهذا ما يقتضيه الشرع لصدق المخبر وهو الله تعالى ، وقد يجب
التقدير لضرورة صحة الكلام عقلاً كقوله تعالى : « واسأل القرية
وتقدير كلمة أهل ، قبلها يقتضيه العقل اذ يستحيل سؤال القرية
نفسها •

١٥- سورة النور ، آية ٢ •

ب - الألفاظ - كل وجميع وأجمع وكافة كقوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » (١٦) . وقوله : « كل نفس معها سائق وشهيد » (١٧) .
وقوله تعالى : « وان كل لما جميع لدينا محضرون » (١٨) . وقوله :
« قاتلوا المشركين كافة » (١٩) . وقوله : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » (٢٠) .

ج - لفظ (من) فيمن يعقل سواء أكانت للشرط كقوله تعالى :
« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (٢١) أم كانت للاستفهام كقوله
تعالى : « من من الذي يقرض الله قرضاً حسناً » (٢٢) .

د - لفظ (ما) فيما لا يعقل في الجزاء والاستفهام كخولة تعالى :
« ما من دابة في الأرض الا على الله رزقها » (٢٣) . أي كل دابة ،
وكقوله : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه » (٢٤) .
أي : أي شيء خلقتم .

هـ - النكرة المنفية أو في سياق النفي . كقوله تعالى : « الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » (٢٥) . فلفظ (اله) نكرة منفية ولفظ (سنة) نكرة في سياق النفي وكلا اللفظين يدل على العموم .

و - لفظ الجمع المعرف بالاضافة كقوله تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق » (٢٦) .

-
- ١٦- سورة آل عمران ، آية ٨٥ .
 - ١٧- سورة ق ، آية ٢١ .
 - ١٨- سورة يس ، آية ٢٢ .
 - ١٩- سورة التوبة ، آية ٣٦ .
 - ٢٠- سورة ص ، آية ٧٣ .
 - ٢١- سورة الانعام ، آية ١٦٠ .
 - ٢٢- سورة الحديد ، آية ١١ .
 - ٢٣- سورة هود ، آية ٦ .
 - ٢٤- سورة الشعراء ٢٢٤ و ٢٢٧ .
 - ٢٥- سورة البقرة ، آية ٢٥٥ .
 - ٢٦- سورة الاسراء ، آية ٣١ .

ز - الاسماء الموصولة كقوله تعالى : « **والذين يرمون المحصنات** » •

فالمتصل أربعة أنواع وهي :

هذه الصيغ تدل حسب مدلولها اللغوي على عموم اللفظ فيبقى النص عاماً ما لم يرد دليل يخصصه والمخصص قد يكون متصلاً أو منفصلاً •

أولاً : التخصيص بالاستثناء • وهو اخراج ما بعد الا أو احدى اخواتها عما قبلها كقوله تعالى : « **والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » (٢٧) •

ثانياً : التخصيص بالشرط • وهو ما يازم من نفي الامر ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم وأدوات الشرط كثرة منها : ان ، اذا ، من ، مهما ، حيثما •

ثالثاً : التخصيص بالصفة •

رابعاً : التخصيص بالغاية • وألفاظ الغاية هي : الى وحتى كقوله تعالى : « **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** » (٢٨) •

فالقتال عام فاذا أعطوا الجزية فلا قتال • فالقتال عام مخصص بغاية وهي دفع الجزية •

أما التخصيص بالأدلة المنفصلة فيشمل أنواعاً كثيرة فقد يخصص عموم القرآن آية من آياته أو حديثاً شريفاً أو اجماً أو قياساً • وفي كتب الأصول أبحاث مستفيضة فليرجع اليها وتكتفي هنا بمثال على النوع الأول وهو تخصيص القرآن بالقرآن قال الله تعالى : « **والذين يتسوفون**

٢٧- سورة الشعراء ، آية ٢٢٣ •

٢٨- سورة التوبة ، آية ٢٩ •

منكم ويلدون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » (٢٩) .
فهذه الآية عامة تدل على أن عدة كل امرأة توفي زوجها عنها هي أربعة
أشهر وعشرة أيام .

ثم جاءت الآية الكريمة تخصص عمومها : « وأولات الاحمال أجلهن
أن يضعن حملهن » (٣٠) . فجعلت مدة عدة الحامل المتوفى عنها زوجها هي
وضع حملها سواء بلغت المدة أربعة أشهر وعشرة أيام أم لم تبلغ .

المبحث الثالث

المطلق والمقيد

إذا لم يكن لفظ القرآن عاماً بل كان خاصاً أي لفظاً موضوعاً
للدلالة على فرد واحد وهذا الفرد قد يكون مطلقاً دالاً على مدلول شائع
في جنسه وقد يكون مقيداً دالاً على مدلول معين مثل زيد وعمرو ، فإذا
ورد نص قرآني مطلق فانه يعمل باطلاقه ما لم يرد نص آخر يقيد كقوله
تعالى في سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » (٣١)
فلفظ الدم مطلق ولكنه قد قيد بكونه مسفوحاً وذلك في سورة الانعام :
« قل لا أجد فيما أوحى الي محرماً على طعامه إلا أن يكون ميتة أو
دماً مسفوحاً أو لحم خنزير » (٣٢) . فلا يحرم من الدم إلا ما كان
مسفوحاً .

وبذلك يحمل المطلق على المقيد وهنا نلاحظ اتحاد الموضوع والحكم
أما إذا اختلف الموضوع أو الحكم فلا يحمل المطلق على المقيد . ففي موضوع
الظهار مثلاً ورد قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون
لما قالوا فتحرير رقبة » (٣٣) فلفظ رقبة : مطلق .

-
- ٢٩- سورة البقرة ، آية ٢٣٤ .
 - ٣٠- سورة الطلاق ، آية ٤ .
 - ٣١- سورة المائدة ، آية ٤ .
 - ٣٢- سورة الانعام ، آية ١٤٥ .
 - ٣٣- سورة المجادلة ، آية ٣ .

وفي موضوع قتل الخطأ ورد قوله تعالى : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » (٣٤) ، فلفظ رقبة في هذه الآية مقيد بوصفها مؤمنة ونظراً لاختلاف الموضوع فلا يحمل المطلق على المقيد ، لان الاختلاف في الموضوع مظنة لاختلاف الاحكام وعلى هذا فلا يجب في كفارة الظهار تحرير رقبة مؤمنة ، بل يجزي عتق أي رقبة مؤمنة أو كافرة ، وكما قيل في اختلاف الموضوع يقال في اختلاف الحكم .

المبحث الرابع

المجمل والمبين

قال السيوطي : المجمل هو ما لم تتضح دلالاته ومنشأ ذلك أمور منها :

- ١ - ان يكون اللفظ مشتركاً بين معان مختلفة كلفظ العين فانها بمعنى الذهب والشمس والجاسوس ، وكلفظ المختار يصح اطلاقه على الفاعل والمفعول ، وقد يكون المعنيان مختلفين متضادين ، كما في قوله تعالى : « ثلاثة قروء » فالقراء بمعنى الحيض وبمعنى الطهر .
- ٢ - وقد يكون الاجمال في لفظ مركب كما في قوله تعالى : « أو يعفوا **الذي بيده عقدة النكاح** » (٣٥) فان الذي بيده عقدة النكاح متردد بين الزوج والولي .
- ٣ - وقد يكون بسبب التردد والاختلاف في عود الضمير كقوله تعالى : « **اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** » يحتمل عود ضمير الفاعل في يرفعه الى ما عاد اليه ضمير (اليه) وهو الله ويحتمل عود الضمير الى العمل . والمعنى ان العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب ويحتمل عودة الى الكلم أي أن الكلم الطيب وهو التوحيد يرفع العمل الصالح لانه لا يصح العمل الا مع الايمان . وما أكثر الكلام الذي في هذا الحديث وفي عود الضمير : (رحم الله أبا الدرداء لو لم يخف الله لم يعصه) .

٣٤- سورة النساء ، آية ٩٢ .

٣٥- سورة البقرة آية ٢٣٦ .

وهناك أمور أخرى اختلف العلماء فيها ، بل منهم من جعل
المتشابهات في الجملات والمجملات في المتشابهات كما هو واضح في
النوع الثاني .

وعلى أية حال فان المبين عندهم هو ما ازيل اجماله وابهامه ومنهم من
يرى ان المتشابه اذا رد الى المحكم واتضح معناه أصبح مبيناً .

المبحث الخامس

المحكم والمتشابه

مدلولها اللغوي :

١ - المحكم : تقول العرب : حاكمت وحاكمت وحاكمت بمعنى : رددت
ومنعت ، والحاكم يمنع الظالم عن الظام ، وحكمة اللجام هي التي تمنع
الفرس عن الاضطراب ، وفي حديث النخعي : أحكم اليتيم كما تحكم ولدك
أي امنعه من الفساد :

قال جرير :

ابني حنيفة أحكموا سفهاءكم
اني أخاف عليكم ان أغضبها
أي امنعوا سفهاءكم .

وبناء محكم أي وثيق يمنع من تعرض له ، وسميت الحكمة حكمة
لانها تمنع عما لا ينبغي (٣٦) . وقيل ان احكام الشيء اصلاحه واتقانه
واحكام آيات القرآن احكامها من خلل يكون فيها أو باطل يقدر ذو زيغ أن
يطعن فيها من قبله (٣٧) .

٣٦- التفسير الكبير للرازي ، ج ٧ ص ١٦٧ ، وانظر القاموس المحيط
في مادة حكم وذلك جامع البيان للطبري بتحقيق المرحوم محمود
شاکر ، ج ٥ ص ٢٢٥ وما بعدها ، وتفسير أبي حيان ، ج ٥ ص ٢٠٠
ط بيروت .

٣٧- انظر القاموس المحيط . ومناهل العرفان ، ج ٢ ص ١٦٦ .

ب - التشابه : أما التشابه فهو ان يكون أحد الشيئين مشابهاً للآخر ، بحيث يعجز الذهن عن التمييز ، قال الله تعالى : « **ان البقر تشابه علينا** » وقال في وصف ثمار الجنة : « **واتوا به متشابهاً** » أي متفق المنظر مختلف الطعوم ، وقال تعالى : « **تشابهت قلوبهم** » ومنه يقال : (أشتبه علي الامران اذا لم يفرق بينهما) .

وقال عليه السلام : (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات) . ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الانسان عن التمييز بينهما سمي كل ما لا يبتدي الانسان اليه بالمتشابه اطلاقاً لاسم السبب على المسبب .

مدلولهما الاصطلاحي :

يجدر بنا قبل التعرض لمدلول المحكم والمتشابه الاصطلاحي ان نتعرض الى الآيات القرآنية الواردة في هذا الموضوع فأية تصف القرآن كل القرآن بأنه محكم . وآية تصف القرآن بأن منه المحكم ومنه المتشابه . وحيث اننا نعلم ان القرآن منزّه عن التناقض والتناقض فاننا نجزم ان هذه الآيات لا تناقض فيها ، بل لكل آية معنى سديد ودقيق يلاحظ بالتأمل والتمحيص والتحقيق . فالآية التي يقول الله فيها : « **الم ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت** » تفيد وتشير الى أحكام القرآن كله آية آية ، وسورة سورة ، وتكاد كلمة المفسرين قديماً وحديثاً ، تجمع على معنى واحد لهذه الآية وان اختلفت تعابيرهم فائمة المفسرين الطبري والرازي وابو حيان يقولون : ان معنى احكمت آياته : نظمت تنظيماً رصيناً لا نقص ولا خلل كالبناء المحكم ، فمعنى ان القرآن كله - حكم كونه كلاماً حقاً . فصيح الالفاظ ، صحيح المعاني ، وكل قول وكلام يوجد كان القرآن أفضل منه في فصاحة اللفظ وقوة المعنى (٣٨) .

وكذلك نجد نفس المعنى ، بل بنفس الالفاظ أحياناً عند المفسرين المتأخرين . يقول الجمل في تفسيره الفتوحات الانهية : « **كتاب احكمت**

٣٨- التفسير الكبير ، ج ٧ ص ١٦٧ . ط ٢ دار الكتب العلمية طهران ، وكذلك جامع البيان والبحر المحيط في تفسير نفس الآية .

آياته أي نظمت نظماً متقناً لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه (٣٩) .
أما القاسمي فقال : (احكمت آياته نظمت نظماً رصيناً محكماً معجزاً
لا يعتريه نقص ولا خلل لفظاً ومعنى) (٤٠) .

أما الآية : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » فتفيد ان
آيات القرآن يشبه بعضها بعضاً في الأحكام والاتقان فلا يستطيع أحد
المفاضلة والتمييز بين آية وأخرى .

قال قتادة : (الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف) (٤١) .

أما الآية الثالثة : فقول الله تعالى : « هو الذي أنزل عليك آيات
محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » .

هذه الآية هي موضوع حديثنا وهي تفيد ان القرآن الكريم يشتمل
على المحكم والمتشابه معاً . وقد اختلف العلماء في تحديد معناه
الاصطلاحي ، ولن اتعرض الى الأقوال التي لا تستند الى دليل ، ولا الى
المناقشات التي لا يطول استقصائها فقد بلغت عند بعض العلماء مئات
من الصفحات ومن أراد معرفتها فليرجع الى ما كتب فيها من المطولات (٤٢) .

أما القول الراجح فهو ان المحكم ما ظهر معناه وانكشف كسفاً
يرفع الاحتمال : أو : (ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره) (٤٣) .
ومثاله قول الله تعالى : « واحل الله البيع وحرم الربا » . وقوله :
« لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . وقوله : « والسارق والسارقة
فاقطعوا أيديهما » .

٣٩- الفتوحات الانهية ، ج ٢ ص ٣٨٧ ، ط دار الاستقامة - القاهرة .
٤٠- محاسن التأويل للقاسمي ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج ٩
ص ٣٤٠٨ .

٤١- انظر تفسير ابن كثير وبحاشيته تفسير البغوي ، ج ٧ ص ٢٢٦-
٢٣٧ ، ط المنار .

٤٢- انظر متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار الهمداني ، تحقيق الدكتور
عدنان زرزور . وانظر المحكم والمتشابه رسالة نال بها ابراهيم
خليفة درجة الدكتوراة ، وقد بلغت أكثر من ألف صفحة .

٤٣- تفسير القرطبي ، ج ٤ ص ٩ وما بعدها ، ط دار الكتب المصرية .

وأما التشابه المقابل للمحكّم في هذه الآية : فهو (ما احتمل أكثر من معنى) فمعرفة المعنى تحتاج الى التدبير والتأمل . ومن العلماء من يرى أن التشابه مما استأثر الله بعلمه ولا سبيل لاحد الى معرفته ، ويرجع سبب الخلاف بين العلماء الى تغاير افهامهم من هذه الآية الكريمة . فقد اختلف المفسرون في معنى هذه الآية ، هل الراسخون في العلم معطوف على لفظ الجلالة (الله) بمعنى أنهم يعلمون تأويله ، أو أن الواو في قوله (والراسخون) واو الاستئناف في العلم لا يعلمون تأويله ذهب بعض العلماء منهم الخطابي الى ذلك . قالوا :

وما يعلم تأويل التشابه الا الله وحده منفرداً بعلمه . وأما الراسخون في العلم فانهم ابتدئ بالخبر عنهم بأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وقالوا : ان قوله : « يقولون آمنا به » خبر لقوله : « والراسخون في العلم » ولا يجوز ان تكون حالا لأن العرب لا تذكر حالا الا مع ظهور الفعل ، ويستحيل أيضاً أن تكون حالا من المعطوف عليه وهو (الله) والمعطوف (الراسخون) اذ كيف يقول الله معهم آمنا به .

وذهب ابن عباس ومجاهد وبعض العلماء الى عدم الوقف على كلمة الله فالواو في كلمة (والراسخون) واو العطف . واستدلوا على ذلك .

١ - ان الاصل في الواو هو اما الاستئناف فذلك لا يكون الا اذا انتهى الكلام الأول وانتهى معناه ثم يستأنف بكلام جديد ومعنى جديد . والكلام هنا لم ينته لفظاً ولا معنى ، فلا تكون الواو للاستئناف . ومما يؤيد ذلك تواتر القراءة عند حفص بعدم الوقف على لفظ الجلالة .

٢ - أما الاعتراض بأن قوله تعالى : « يقولون آمنا به » يكون حالا للمعطوف والمعطوف عليه ، وان ذلك غير جائز في حق الله فقد اجابوا على ذلك : ان قوله تعالى : « يقولون آمنا به » هو حال للمعطوف دون المعطوف عليه خصوصاً اذا وجدت قرينة تدل على ذلك فانها تنصرف الى المعطوف فقط دون المعطوف عليه ، كما في قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » ، فكلمة صفاً حال تخص المعطوف (والملك) دون المعطوف عليه (ربك) . وكما في قوله تعالى : « ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة فان نافلة حال من يعقوب » أي من المعطوف دون المعطوف عليه .

٣ - وأوضح دليل على ان الراسخين في العلم يعلمون تأويل القرآن ما روي عن ابن عباس في هذه الآية انه كان يقول : «أنا ممن يعلم تأويله» وهو يصدق دعاء النبي ﷺ له : (اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل) والامام التابعي ، وتلميذ ابن عباس المفسر مجاهد الذي قال الثوري فيه : (اذا جاءت التفسير عن مجاهد فحسبك به) .

هذا الامام رأى ان العلم بتأويل المتشابه ممكن .

٤ - ان ذكر الراسخين للعلم في هذه الآية كان لمزية لهم عن سائر الناس وهذه الخاصية لا تكون الا اذا كان لهم علم بالمتشابه . وهناك قول آخر : سامنا جدلا ان الواو للاستئناف وان ما بعدها ليس له علاقة بما قبلها ، فعلى هذا القول ليس في الآية ما يدل على عدم علم الراسخين في العلم لأن الآية تخبر عن الراسخين في العلم بانهم يقولون آمنا به . ولم تتعرض الى علمهم ولا الى عدم علمهم فهذه قضية مسكوت عنها في الآية ، فكونهم يعلمون أو لا يعلمون مما يحتاج الى دليل مستقل ، وقد وجد من الأحاديث ما يدل عليه . مما تقدم يتضح انه ليس في القرآن متشابه بمعنى الذي لا يفهم معناه . لأن اشتغال القرآن على شيء غير مفهوم يخرج عن كونه بيانا للناس وهو خلاف ما أخبر الله به . أما تفسير بعض العلماء للمتشابه بانه لا يعلم وأنه مما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ، وعلم الغيب ، وغير ذلك ، فاننا نقول لهم ، نعم ، اننا معكم ان هذه مما لا يعلمها الا الله ونحن نسلم بذلك ولكن تفسير المتشابه بها فهذا ما لا نسلمه .

تطبيقات :

قلنا ان المتشابه انما سمي متشابهاً لاشتباه معناه على السامع الذي قد يكون منشأ خفاء في اللفظ أو المعنى وقد يكون ناشئاً عن تركيب الجملة .

والخفاء في اللفظ أو المعنى أو التركيب يحدث لاشتباه والالتباس الذي قد يكون منشأ اللغة لتردد اللفظ بين الحقيقة والمجاز والوضوح والابهام ونحو ذلك .

كما قلنا قد يكون منشأ التشابه عائد الى العقل والسمع وكل ما من شأنه ان يقطع بأن المراد من هذا التشابه أمر غير ظاهره ولهذا فان المراد من التشابهات يجب ان يرجع فيه الى المحكمات التي جعلها الله بمنزلة (الأم) أي الاصل الواحد الجامع الذي ترد اليه التشابهات ، فقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٤٤) . يرجع في فهمه وتفسيره الى قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » (٤٥) . وقوله تعالى : « وأذ أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (٤٦) . يرجع فيه الى قوله : « قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون » (٤٧) .

هذا هو منشأ التشابه وهذه تطبيقات عليه :

قلنا ان التشابه قد يكون منشأه خفاء المعنى في اللفظ . وهذا قد يكون على جهة التساوي كقوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » (٤٨) فان لفظ القراء ، يحتمل ان يراد به احدى المعنيين المتضادين : أما الحيض أو الطهر . وقد يكون خفاء المعنى من جهة تركيب الجملة كقوله تعالى : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » (٤٩) . يحتمل ان يراد به الزوج أو الولي . وقوله : « فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً » (٥٠) يحتمل الزوج والولي أيضا .

وقد يكون خفاء المعنى للفظ لا على جهة التساوي ، مثل ان يكون أحد المعاني مرجوحاً والآخر راجحاً ، مثل الآيات المتعاقبة بالصفات ، وكالحروف التي افتتح الله بها بعض سور القرآن : ق ، ن ، ص ، حم ، يس ، ألم ، عسق ، وغيرها .

-
- ٤٤- سورة طه ، آية ٥ .
 - ٤٥- سورة الشورى ، آية ١١ .
 - ٤٦- سورة الاسراء ، آية ١٦ .
 - ٤٧- سورة الاعراف ، آية ٢٨ .
 - ٤٨- سورة البقرة ، آية ٢٢٨ .
 - ٤٩- سورة البقرة ، آية ٢٣٧ .
 - ٥٠- سورة النساء ، آية ٤ .

فمن العلماء من قال : انها سر استأثر الله بعلمه . ومنهم من فسرها ولكنهم اختلفوا في معانيها اختلافاً كثيراً فمنهم من رجح ان فواتح السور أسماء للقرآن الكريم . ذكره السيوطي وقال : أخرجه عبد الرزاق عن قتادة ، ومنهم من قال : هي أسماء لله وقد أقسم الله بها . وذهب الزمخشري الى استنباط معنى مبناه العقل وقد استحسنته كثير من العلماء ، فقالوا في معنى هذه الحروف : ان هذه الحروف المفتوح بها بعض السور ، منها تتكون الكلمة ومن الكلمات تتألف الجمل ومن الجمل يتألف الكتاب ، والقرآن مؤلف من مثلها ولا يخرج عنها فان كان باستطاعتكم الاتيان بمثله فأتوا بذلك وان عجزتم فاعلموا ان هذا القرآن من عند الله ولذلك فقد غلب على السور المفتوحة بالحروف ان يعقب ذلك بيان ان القرآن من عند الله : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه » (٥١) .

« حم تنزيل الكتاب » (٥٢) . « يس والقرآن الحكيم » (٥٣) .

« ق والقرآن المجيد » (٥٤) . « ص والقرآن ذي الذكر » (٥٥) .

ولازمه مخشري كلام طويل استوفاه في مطلع سورة البقرة يطول بنا ذكره ، ونجد المفسرين يسهون في معناها في مطلع سورة البقرة عند قوله تعالى :

« ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه » (٥٦) ، وهناك مزاعم لا يعتد بها كالذي تكلم في معنى الحروف واستنبط منها اعمار الأمم وآجالها . ومنهم من استخرج فتوح بيت المقدس في سنة معينة ، وقد فندها أبو بكر بن العربي وقال : وقد تحصل لي فيها عشرون قولاً وأزيد ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ولا يصل منها الى فهم .

وأخيراً نختم الكلام عن التشابه بكلمة موجزة قالها الراغب في المفردات : ان التشابه بالجملة ثلاثة أضرب متشابه من جهة اللفظ فقط ، ومن جهة المعنى فقط .

ومن جهتهما ، فالأول : ضربان :

-
- ٥١- سورة البقرة ، آية ١ ، ٢ .
 - ٥٢- سورة الجاثية ، آية ١ ، ٢ .
 - ٥٣- سورة يس ، آية ١ ، ٢ .
 - ٥٤- سورة ق ، آية ١ ، ٢ .
 - ٥٥- سورة ص ، آية ١ ، ٢ .
 - ٥٦- سورة البقرة ، آية ١ ، ٢ .

أحدهما : يرجع الى الالفاظ المفردة ، أما من جهة الغرابة ، نحو الأب
ويزفون ، أو الاشتراك كاليد واليمين .

وثانيهما : يرجع الى جملة الكلام المركب وذلك ثلاثة اضراب ، ضرب
لاختصار الكلام ، نحو : « وان خفتم الا تقسطوا في اليتامي فانكحوا
ما طاب لكم من النساء مشئي وثلاث ورباع » . وضرب لبسطة نحو :
(ليس كمثلته شيء) لأنه لو قيل ليس مثله شيء كان اظهر للسامع .
وضرب لتنظيم الكلام ، نحو (انزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له
عوجاً) .

والمتشابه من جهة المعنى : أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة
فان تلك الأوصاف لا تتصور لنا ، اذ لا يجعل في نفوسنا صورة ما لم
نحسه أو ليس من جنسه .

والمتشابه من جهتهما خمسة اضراب :
الأول : من جهة الكمية كالعموم والخصوص ، نحو : « اقتلوا المشركين » .
والثاني : من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو : « فانكحوا ما طاب لكم
من النساء » .

والثالث : من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ ، نحو : « اتقوا الله حق
تقاته » .

والرابع : من جهة المكان والامور التي نزلت فيها ، نحو : « وليس البر
بأن تأتوا البيوت من ظهورها » .

ونحو (انما النسيء زيادة في الكفر) فان من لا يعرف عادتهم
في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية .

الخامس : من جهة الشروط التي يصح بها الفعل ويفسد ، كشروط الصلاة
والنكاح ثم قال : (وهذه الجملة اذا تصورت علم ان كل
ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم) .

وقد علق الزرقاني على هذا التقسيم فقال : وهو كلام جيد غير ان
في بعضه شيئاً (٥٧) .

٥٧- مناهل العرفان ، ج ٢ ، ص ١٧٦-١٧٧ .

الفصل الثاني

النسخ في القرآن الكريم

المبحث الأول

التعريف بالنسخ

كتب فيه خلائق لا يحصون ، واختلف فيه العلماء قديماً وحديثاً ، فمن الاقدمين أبو مسلم الاصفهاني ، ومن المتأخرين : الامام محمد عبده ، والشيخ محمد الغزالي ، وعبد المتعال محمد الجبري الذي ألف كتاباً في ابطال النسخ ، وقد تصدى للرد عليهم الدكتور مصطفى زيد الذي ألف كتاباً يقع في مجلدين ويتقدم لنيل درجة الدكتوراة . والكتاب بعنوان : (النسخ في القرآن الكريم) ، وقد استوعب هذه القضية وكتب عن هذا البحث بما لا يزيد عليه ، ونحن في هذه العجالة لا نستطيع التعرض الى القضية بتمامها ، بل سنوجز الكلام بما يفيد الغرض في هذا المقام ، فنبدأ بالحديث عن معنى النسخ والدليل عليه وأنواعه والطريق لمعرفة .

معنى النسخ لغة :

للسنخ في اللغة ثلاث معاني :

- أولاً : بمعنى الازالة ومن قولهم : نسخت الشمس الظل .
- ثانياً : بمعنى النقل ، أي نقل الشيء من موضع الى موضع ، ومن قولهم : نسخت الكتاب ، ونسخت المصحف اذا نقل ما فيه ، وبمعنى النقل قول الله تعالى : « انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

ثالثاً : ما ذكره ابن منظور في لسان العرب ان النسخ تبديل الشيء من الشيء وهو غيره ، ثم يقول : والنسخ نقل الشيء من مكان الى مكان وهو هو ، فهو يفرق بين التبديل والنقل وهما من معاني النسخ ،

ثم يذكر المعنى الثالث فيقول : والعرب تقول نسخت الشمس الظل وانتسخته : أزالته أي اذهبت الظل وحلت محله .

وقد اختلف علماء اللغة في المعنى الحقيقي والمجازي للنسخ ، فقال بعضهم : ان الازالة هي المعنى الحقيقي والمعاني الاخرى مجازية ومنهم من عكس ، والخلاف يطول استقصاؤه .

المعنى الاصطلاحي للنسخ :

اختلف الاصوليون في تعريفه فقال بعضهم :

النسخ : هو ابطال الحكم المستفاد منه من نص سابق بنص لاحق ومنهم من قال : هو خطاب الشارع المانع من استمرار ما ثبت من حكم شرعي سابق . ومنهم من قال : رفع الحكم الشرعي لخطاب شرعي .

وتعاريف أخرى كثيرة وكلها لا تخلو من مقال ونقض ، وأولى التعاريف وأقربها للصواب ان النسخ : (رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي) .

فلا بد ان يكون الحكم المنسوخ شرعياً فاذا كان عقلياً فلا يكون نسخاً فلا بد ان يكون الدليل الناسخ على ارتفاع الحكم شرعياً متراجحاً عن الخطاب المنسوخ حكمه . وان لا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين كقوله تعالى : « واتموا الصيام الى الليل » ، فان الغاية المذكورة وهي قوله : (الى الليل) تفيد انتهاء حكم الصوم وهو وجوب اتمامه بمجرد دخول الليل ، ولكن لا يقال لهذه الغاية الدالة على انتهاء الحكم انها نسخ ، وذلك لاتصالها بدليل الحكم الأول وهو قوله تعالى : « ثم اتموا الصيام الى الليل » بل تعتبر الغاية المذكورة بياناً أو اتماماً لمعنى الكلام وتفيداً له بمدته أو شرط فلا يكون رافعاً ، وانما يكون رافعاً اذا ورد الدليل الثاني بعد ان ورد الحكم مطلقاً ، واستقر من غير تفيد بحيث يدوم لولا الناسخ . وأخيراً فلا بد في النسخ من التعارض الحقيقي بين الدليلين .

المبحث الثاني

دليل مشروعية النسخ

جاءت الأدلة الشرعية من الكتاب وجماع الصحابة بينة واضحة تدل على جواز النسخ ، ووقوع النسخ هو خير على جوازه ، اذ وقوع الشيء أعظم دليل عليه . أما الكتاب فقه قال الله تعالى في سورة البقرة : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » (١) . وقال أيضا : « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » (٢) .

ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » خمسة عشرة مسألة ابتدأها بذكر نزولها فقال : هذه آية عظمى في الأحكام . وسببها ان اليهود لما حسدوا المسلمين في التوجه الى الكعبة ، وطعنوا في الاسلام بذلك ، ان محمدا يأمر اصحابه بشيء ثم ينهاهم عنه ، فما كان هذا القرآن الا من جهته ولهذا يناقض بعضه بعضاً فأنزل الله : « واذا بدلنا آية مكان آية » وانزل : « ما ننسخ من آية » . قال الزمخشري في كشافه (واذا بدلنا آية مكان آية) تبديل الآية مكان الآية هو النسخ ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لانها مصالح والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته وهذا معنى قوله : « والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر » .

وأما اجماع الصحابة فقد انعقد اجماعهم على ان شريعة محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع السابقة ، وانعقد اجماعهم على نسخ وجوب الوصية للوالدين والأقربين بأية الموارث ، فاجماعهم على ذلك دليل شرعي على النسخ .

وأما وقوع النسخ بالفعل فان ما اجمع عليه الصحابة من حوادث وقع النسخ فيها دليل على وقوعه وهو دليل على وجوده وعلى جوازه .

- ١ - سورة البقرة ، آية ١٠٦ .
- ٢ - سورة النحل ، آية ١٠١ .

وعلى الرغم من تضافر الأدلة على النسخ ووقوعه . الا ان طائفة من المنتمين للإسلام المتأخرين . وعلى رأسها أبو مسلم الاصفهاني قد أنكروا النسخ كما أنكر النصارى وفرقة الشيعونية والعنانية من اليهود . يقول ابن كثير : (والذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ انما هو الكفر والعناد ، فانه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله لأنه يحكم ما يشاء كما انه يفعل ما يريد ، مع انه وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك ، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الاختين مباحا لاسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها ، وأمر بني اسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل (ويقوا أحياء يذيقون البشرية ألوانا من أحقادهم والله في ذلك حكمة) وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدقون عنه (٣) .

المبحث الثالث

أنواع النسخ

اتفق العلماء القائلون بالنسخ في القرآن الكريم على نوع واحد واختلفوا في جواز نوعين آخرين .

١ - أما النوع المتفق عليه فهو نسخ الحكم دون التلاوة ومثاله قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » (٤) . فهذه الآية قد أوجبت تقديم الصدقة أمام مناجاة النبي ﷺ وقد نسخت بقوله تعالى : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فاذ لم تفعلوا وتاب عليكم فاقموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله » (٥) . ومن ذلك أن الله قد أوجب في ابتداء الاسلام الحبس في البيوت والتعنيف حداً للزنا ، قال تعالى : « واللاتي يأتين

٣ - تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ١٥١ .

٤ - سورة المجادلة ، آية ١٢ .

٥ - سورة المجادلة ، آية ١٣ .

الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت اويجعل الله لهن سبيلا ، واللذان ياتيانها منكم فاذوهما فان تابا واصلحا فاعرضوا عنهما ، ان الله كان تواباً رحيماً» فنسخ ذلك بالجلد والتغريب عن الوطن لمدة عام في حق البكر ، وبالرجم بالحجارة في حق الثيب قال تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (٦) .

فالمسوخ في هذه الآيات هو حكمها ، اذ لا يقع النسخ الا في الآيات التي تتعلق بالأحكام ولا يقع في الآيات المتعلقة بالعقائد وأمهات الأخلاق ولا الآيات المتعلقة بالقصص والأخبار .

هؤلاء العلماء الذين اتفقوا على وقوع هذا النوع من النسخ قد اختلفوا في عدد الآيات المنسوخة فمنهم الكثير حتى عدّها بالمئات ومنهم المقتصد ومنهم المقل ، وقد قام المرحوم الدكتور مصطفى زيد باستقصائها في كتابه النسخ في القرآن الكريم وبعد مناقشته للأراء الكثيرة وابطاله لدعاوي كثيرة لم يتجاوز ما صح عنده سوى آيات تعد على أصابع اليد .

٢ - أما منسوخ التلاوة دون الحكم فقد اختلف العلماء في جوازه فمنهم من اجازه وذلك على وقوعه بما روي عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب انهما قالا : (كان فيما انزل من القرآن) : « انشسيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة » فهذه الآية وان بقي حكمها الا انه لم يعد لها وجود بين دفتي المصحف ومثاله ما روي عن ابي بن كعب أيضاً - انه قال : (كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة أو أكثر) . ومعنى ذلك ان كثيراً من الآيات قد نسخ تلاوة .

ومن العلماء من ينفي وقوع هذا النوع من النسخ ويقولون بعدم جوازه لعدم ثبوته بالدليل القطعي ، لأن القرآن قد ثبت بطريقة التواتر ، فقد نزل وحفظ وكتب بطريقة التواتر ، والايمان به على هذا الوجه عقيدة وهي لا تؤخذ الا من الدليل القطعي الثبوت القطعي الدلالة ، وهذا لم يحصل اذ لم يأت دليل قطعي على جواز نسخ القرآن تلاوة .

٦ - سورة النور ، آية ٢ .

أما ما روي عن عمر بن الخطاب - الحديث السالف الذكر فإنه خبر
آحاد لا تقوم فيه الحجة على نسخ القطعي ، والظني لا ينسخ القطعي .

تعقيب بتصرف من كتاب مصطفى زيد :

لا يصح القول جزافاً ، وهذا ما اوقع الكثير من العلماء في القول به
فبمجرد ظهور رأى تعارض يلجأون الى القول بالنسخ وقد يمكن الجمع
بينهما فلا يكون هناك أي تعارض ، فالنسخ هو : ابطال الحكم وتعطيل
النص ، والجمع بين الدليلين أولى من اهمالهما ، بل الجمع بينهما ولو من
وجه من الوجوه أولى من اهمالهما من كل وجه وادعاء النسخ فيهما .
لأن النسخ على خلاف الاصل ، وما كان خلاف الاصل لا بد من بنينة
عليه والا لم تقم حجة منه .

وهذه الحجة اما ان ينص اللاحق على انه ناسخ للسابق ، لفظاً
أو دلالة ومثاله ما سبق ذكره في آية المناجاة ، وما وزد في الحديث :
(كنت نهيتكم عن زيارة القبور الا فزوروها) ، واما ان يكون بين المنصين
تعارض بحيث لا يمكن التوفيق بينهما وينظر في التعارض بين النصين
من كل وجه ، فان احدهما معلوماً وقطعياً والآخر مظنوناً ، فالعمل
بالمعلوم المقطوع به واجب ، وان كان الدليلان معلومين مقطوع بهما ،
أو ظنيين أي في درجة واحدة من القوة ، ينظر الى القرائن : فان كان
أحدهما متأخر عن الآخر فهو ناسخ والمتقدم منسوخ وقد يعرف التاريخ
- مثلاً - من اسناد الراوي كان يقول هذا الحديث في سنة كذا ، وهذا
في سنة كذا . وهناك حالات أخرى يستنبط منها معرفة المتأخر من
المتقدم .

أما اذا جهل التاريخ فلا نسخ وأحدهما ليس بأولى من الآخر
بالنسخ ، وكل من ادعى ان حكم ما منسوخ ولم يعلم التاريخ يرد بعدم
معرفة التاريخ .

٣ - أما منسوخ الحكم والتلاوة معا ، فمثاله ما رواه البخاري
ومسلم عن عائشة قالت : (كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرم
فمنسوخن بخمس معلومات) فتوفي الرسول ﷺ وهن فيما يقرآن من القرآن .

فما قيل في النوع الثاني قد قيل في هذا النوع أيضا . وفي هذا الحديث
اذ كيف تقول عائشة : (فتوفي رسول الله ﷺ) وهن فيما يقرآن من
القرآن . ونحن نعلم ان هذا الكلام لا يقرأ في القرآن وهو غير موجود
على الاطلاق ، في المصحف العثماني . لذا فان كثيراً من الفقهاء لم يأخذ
بحكمه علاوة على عدم الأخذ بتلاوته ، كيف لا ، فأكثر العلماء لا يأخذون
بالقراءة الاحادية كقراءة ابن مسعود (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) بزيادة
متتابعات . ولم يعتبر كثير من الفقهاء هذه القراءة قرآنا بل يعتبرها
حديثاً ، وان وجدت في مصحف صحابي كبير .

ان الذين يجعلون من السور الصغيرة سورة كبيرة ويحتجون بأن
هذا قد ضاع دون اثر يذكر مثلهم كمثل من زعم ان آيات من القرآن
قد ذكرت فضائل علي ولكنها لم تثبت في المصاحف لأن عثمان بن عفان
قد حرقها .

وأخيراً فان للامام المرحوم محمود شلتوت كلام طويل وجيد استوفاه
في كتاب المقارنة على المذاهب الأربعة . كما وافقه على كلامه الدكتور
مصطفى زيد . هذا وفي النسخ كلام اقتصرنا على ذكر المهم منه في هذه
المقالة .

الفصل الثالث

اعجاز القرآن

كتب في اعجاز القرآن خلايق لا يحصون ، وكلامهم فيه كان طويلاً ، وما اثير حوله من شبهات كان أكثر ، والرد عليها أطول ، وما كتب في وجوه الاعجاز واختلافها قد تعددت ، وكما قيل فان الناظر في هذا القرآن يتراعى له وجه من الوجوه قد لا يراه غيره . كما ان الناظر الى قطعة الماس يتراعى له ألوان عجيبة متعددة من الأوضاع ، بل رأى بعض العلماء ان في القرآن آلاف المعجزات وعنون بذلك عنواناً في مباحث الاعجاز . ولن نستطيع استيعاب هذه الأقوال في هذه العجالة ، فان استيعاب هذا الموضوع لا يلم به كتاب كامل ، بل كتب فيه بعض طلبة الدكتوراة ونالوا بها الدرجة ليس في موضوع الاعجاز كله بل في بعضه .

حسبنا ان نتعرض الى المام سريع في هذا الموضوع ، وهذا ما يتفق والمنهج المحدد .

معنى اعجاز القرآن :

اعجاز القرآن مصدر مضاف الى فاعله والمفعول وما تعلق به الفعل محذوف للعلم به والتقدير اعجاز القرآن خلق الله عن الآتيان بما تحداهم به . فالقرآن معجزة النبي ﷺ ، ومعنى المعجزة هي الفعل الخارق للعادة ، وهي خارجة عن حدود الأسباب المعروفة ، فاعجاز القرآن أو معجزة القرآن تقدم البرهان انجلي على ان القرآن من كلام الخالق وليس من كلام المخلوق . وليس مقصود الخالق تعجيز الخلق لأن ذلك ليس مقصوداً لذاته بل المتصود لازمه . وهو الاذعان والتصديق بأن ما جاء به النبي ﷺ هو من عند الله . أما القرآن المعجز : فهو اللفظ المنزل على سيدنا محمد ﷺ بما يدل عليه من معانيه ، فالقرآن هو اللفظ والمعنى معاً ، فالمعنى وحده لا يسمى قرآناً ، واللفظ وحده لا يتأتى ان يكون دون معنى مطلقاً ، لأن اصل الوضع في اللغة انما هو للدلالة على معنى معين ، ولذلك وصف القرآن بوصف لفظه فقال : « **انا انزلناه قرآناً** »

عربياً « (١) . وقال : « فصلت آياته قرآناً عربياً » (٢) . وقال :
« قرآناً عربياً غير ذي عوج » (٣) .

فالعربية وصف للفظ القرآن لا لمعانيه لأن معانيه انسانية وليست
عربية وهي لبني الانسان وليست للعرب وحدهم . أما قوله تعالى :
« وكذلك أنزلنا حكماً عربياً » (٤) فان معناها حكمة مترجمة بلسان
العرب . فعربية القرآن حتمية وهي عربية لفظة فحسب ، والقرآن هو
معجزة النبي ﷺ ، وانه وان كانت هناك معجزات أخرى قد جرت على
يده غير القرآن ، كما ورد في القرآن نفسه وفي صحاح السنة ، فان
النبي ﷺ لم يتحد بها .

أوجه الإعجاز :

يحسن بنا قبل التحدث عن وجوه الإعجاز في القرآن ان نقدم بين
يديك كلمة رائعة تجلي لنا هذا الموضوع وتوضحه . (لا مناص لتكلم
في اعجاز القرآن من ان يتبين حقيقتين عظيمتين قبل النظر الى هذه
المسألة وان يفصل بينهما فصلاً ظاهراً) (٥) ، لا يلتبس وان يميز
أوضح تمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما :

أولهما : ان اعجاز القرآن كما يدل عليه لفظه وتاريخه هو دليل
النبي ﷺ على صدق نبوته ، وعلى انه رسول من الله يوحى اليه هذا
القرآن . وان النبي ﷺ كان يعرف (الاعجاز القرآني) من الوجه
الذي عرفه من سائر من آمن به من قومه العرب ، وان التحدي الذي
تضمنته آيات التحدي من نحو قوله تعالى : « يقولون افتراه ، قل فاتوا
بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين
فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل

- ١ - سورة يوسف ، آية ٢ .
- ٢ - سورة فصلت ، آية ٣ .
- ٣ - سورة الزمر ، آية ٢٨ .
- ٤ - سورة الرعد ، آية ٣٧ .
- ٥ - هذه المقدمة افتتح بها الدكتور عدنان زرزور حديثه عن اعجاز
القرآن وذلك في كتابه (القرآن ونصوصه) ص ١٩٣-١٩٤ .

انتم مسلمون» (٦) وقوله تعالى : « قل لأن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٧) .
 إنما هو تحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك ،
 فما هو بتحد بالاخبار بالغيب المكنون ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد
 دهر من تنزيله ، ولا يعام ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب ولا بشيء
 من المعاني فما لا يتصل بالنظم والبيان .

ثانيهما : ان اثبات دليل النبوة وتصديق دليل الوحي ، وان القرآن
 تنزيل من عند الله كما نزلت التوراة والانجيل والزبور وغيرهما من كتب
 الله سبحانه لا يكون منها شيء يدل على ان القرآن معجز ، ولا اظن ان
 قائلًا يستطيع ان يقول ان التوراة والانجيل والزبور كتب معجزة ،
 بالمعنى المعروف في شأن اعجاز القرآن من اجل انها كتب منزلة من عند الله
 ومن البين أن العرب قد طوبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله ﷺ
 ودليل صدق الوحي الذي يأتيه ، مجرد سماع القرآن نفسه ، لا بما يجاد
 لهم به حتى يلزمهم الحجة في توحيد الله ، أو تصديق نبوته ، ولا بمعجزة
 كمعجزات اخوانه من الأنبياء مما آمن على مثله البشر . وقد بين الله في
 غير آية من كتابه ان سماع القرآن يقتضيه ادراك مباينة لكلامهم ، وانه
 ليس من كلام البشر ، بل هو كلام رب العالمين ، وبهذا جاء الأمر في قوله
 تعالى : « وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم
 ابلغه مأمنة » (٨) .

فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أما صحة
 النبوة فليست برهاناً على اعجاز القرآن ، فالخلط بين هاتين الحقيقتين
 واهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر ، وفي دراسة اعجاز القرآن
 قد افضى الى تخليط شديد في الدراسة قديماً وحديثاً ، بل ادى هذا الخلط
 الى تأخر (علم اعجاز القرآن) وعلم البلاغة عن العناية التي كان ينبغي
 ان ينتهي اليها .

-
- ٦ - سورة هود ، الآيات ١٣ ، ١٤ .
 ٧ - سورة الاسراء ، آية ٨٨ .
 ٨ - سورة التوبة ، آية ٦ .

بعد هذه المقدمة نتحدث عن أوجه اعجاز القرآن ، فان هذا البحث مما اطل العلماء في تعداده وتجاوزوا فيه وذكروا آراء فاسدة بينة الفساد وآراء يعوزها التحقيق والتدقيق ، واننا سنكتفي بذكر أشهر الآراء ما فسد منها وما صلح ونبين الوجه المختار .

القول بالصفية :

نسب هذا القول لأبي اسحاق النظام من المعتزلة ولأبي اسحق الاسفرائيني من أهل السنة وللمرتضى من الشيعة . وخلاصة هذا القول أو وجه الاعجاز قد كان بصرف الله قلوب العرب عن معارضته ، وان صارفا إليها زهدهم في المعارضة فلم تتعلق ارادتهم ولم تنبعت إليها عزائمهم ، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعي . وزعموا أيضاً ان عارضا مفاجئاً عطل مواهبهم البيانية وعاق قدرتهم البلاغية . وهذا القول عجيب قد جعل بعض العلماء في حيرة من الأمر حتى أنهم استبعدوا نسبة هذا القول لثلاثة من العلماء المشهورين ، وقال : ان القول بانبا مدسوسة من اعداء الاسلام عليهم أقرب الى العقول وأقوى في الدليل ، لأن ظهور وجوه الاعجاز في القرآن من ناحية ، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأي الآثم إليهم ، لذا فان هذا الزعم لم يكن مقبولاً عند المعتزلة حتى ان الزمخشري قد رد على مثل هذا الزعم ، ولم يكن مقبولاً عند الشيعة ، ففي كتب التفسير عندهم رد لمثل هذا القول ، وأولاً وأخيراً فان رأي أهل السنة يعارض هذا القول ويبطله . ويقول السيوطي في ابطال القول بالصفية : وهذا قول فاسد دليل قوله تعالى : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن** » (٩) الآية فانها تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سابوا القدرة لن تبقى فائدة لاجتماعهم لمنزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره .

والاجماع منعقد على اضافة الاعجاز الى القرآن . فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة الاعجاز ، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلهم القدرة على الاتيان بمثله ، وأيضاً فيلزم من القول بالصفية زوال الاعجاز بزوال التحدي ، وخلق القرآن من الاعجاز ، وفي ذلك مناقضة للآيات التطعية

الدلالة القطعية الثبوت وهي آيات التحد : « قل لئن اجتمعت الانس
والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن » (١٠) ، وفي ذلك انقول فرق
لإجماع الصحابة وإجماع الأمة بأن معجزة النبي ﷺ باقية ولا معجزة له
باقية سوى القرآن .

ولو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام
معجزة ، وإنما يكون بالمنع معجزا ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره
في نفسه (١١) .

وإن عجب من عجب من نسبة هذا القول إلى أولئك العلماء فإن من
أهل هذا الزمان من يزعم هذا الزعم . ومن العلماء من ذكر وجوها أخرى
في إعجاز القرآن الكريم ، وكلها لا تخلو من مقال نكتفي بذكرها وسردها
دون تعليق عليها خوفا من الإطالة ، من ذلك ما ورد فيه من انباء الغيب
في الماضي أو الحاضر المستقبل . وما ورد فيه من معجزات في عاوم الكون
ومعجزات في الطب وعلم الاجتماع وغير ذلك .

وهناك نظريات في وجوه الإعجاز جديرة بالاهتمام والرعاية ، وقد
قال بها أساطين العلماء كالرجزاني في كتابه دلائل الإعجاز وأبو بكر
الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن والرافعي كذلك ، ولقد بينوا لنا
جوانب مهمة في الإعجاز كقضية النظم القرآني ، وكذلك صاحب الظلال
الذي قدم لنا الصورة الرائعة عن الإعجاز في التصوير الفني في القرآن .

وكلمة الفصل إن إعجاز القرآن أظهر ما يظهر في فصاحته وبلاغته
وارتفاعه إلى درجة مدهشة ، ويتجلى ذلك في أسلوب القرآن المعجز ،
ولا بد قبل الحديث عن هذا الوجه من بيان معنى الأسلوب . فنقول
الأسلوب في لغة العرب يطلق ويراد به الطريق بين الأشجار وللفن
وللوجه وللمذهب وللشموخ بالانف ولعنق الاسد ، ويقال لطريقة المتكلم
في كلامه وانسب هذه المعاني بالاصطلاح الآتي هو المعنى الأخير أو هو
الفن أو المذهب مع التقييد . أما الأسلوب في الاصطلاح : فهو الطريقة

١٠- سورة الاسراء ، آية ٨٨ .

١١- الاتقان ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه (١٢) .
فالاسلوب هو المعاني مرتبة في الفاظ منسقة أو هو كيفية التعبير لتصوير
المعاني بالعبارات اللفظية ، ووضوح الاسلوب يكون ببروز المعاني المراد
أداؤها في التعبير الذي أدت به : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا
القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (١٣) .

وقوة الاسلوب تكون باختيار الألفاظ التي تؤدي باللفظ الرقيق ،
والمعنى الجزل يؤدي باللفظ الجزل ، والمعنى المستنكر يؤدي باللفظ
المستنكر وهكذا . . : « ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عينا فيها
تسمى سلسبيلاً » (١٤) . « أن جهنم كانت مرصداً للطاغين مآباً لابئس
فيها أحقاباً » (١٥) . « تلك أذن قسمة ضيزي » (١٦) . « أن أنكر الأصوات
لصوت الحمير » (١٧) . أما جمال الاسلوب فيكون باختيار أصفى
العبارات وأليقها بالمعنى الذي أدته ، وبالألفاظ والمعاني التي معها في
الجملة والجمال ، « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، فذرهم
يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » (١٨) .

والمتتبع للقرآن يجد الارتفاع الشامخ الذي يتصف به اسلوبه
وضوحاً وقوة وجمالاً :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له أن الذين تدعون من
دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وأن يسلبهم الذباب شيئاً
لا يستنقلوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (١٩) .

١٢- انظر المعاجم النغوية في بيان معنى الاسلوب وكذلك مناهل العرفان
ج ٢ ، ص ١٩٨ .

١٣- سورة فصلت ، آية ٢٦ .

١٤- سورة الانسان ، آية ١٧ .

١٥- سورة النبا ، الآيات ٣٠-٣٣ .

١٦- سورة النجم ، آية ٢٢ .

١٧- سورة لقمان ، آية ١٩ .

١٨- سورة الحجر ، آية ٣-١ .

١٩- سورة الحج ، آية ٧٣ .

والقرآن طراز خاص من التعبير ، فنظمه ليس على منهاج الشعر الموزون المقفي ، ولا هو على منهاج النثر المرسل ، ولا هو منهاج النثر المزودج أو النثر المسجوع ، انما هو منهاج قائم بذاته لم يكن للعرب عهد به ولا معرفة من قبل .

وكان العرب لفرط تأثرهم بالقرآن لا يدرون من أي ناحية وصل الى هذا الاعجاز ، فصاروا يقولون : « ان هذا لسحر مبين » (٢٠) ، ويقولون : انه قول شاعر ومرة قول كاهن ، لذا رد القرآن عليهم :

«وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون» (٢١)

وكون القرآن طراز خاص ونسيج منفرد واضح كل الوضوح ، فبينما تجده يقول : « ويخزهم وينصرم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » (٢٢) . ويقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٢٣) مما هو نثر قريب من الشعر ، اذ لو نظمت الآيتان شعرا لكاتتا هكذا :

ويخزهم وينصرم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين
لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

ولكنهما ليستا شعرا وانما هو نوع من النثر فريد ، وفي الوقت الذي تجد القرآن يقول هذا النوع من النثر ، تجده يقول : « والسما والطارق وما ادراك ما الطارق ، النجم الثاقب ان كل نفس لما عليها حافظ ، فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يفرج من بين الصلب والترائب » (٢٤) ، مما هو نثر بعيد عن الشعر كل البعد ، وبينما تجده يقول : « وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا » (٢٥) ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم

-
- ٢٠- سورة يونس ، آية ٧٦ .
 - ٢١- سورة الحاقة ، الآيات ٤٠-٤٢ .
 - ٢٢- سورة التوبة ، آية ١٤ .
 - ٢٣- سورة آل عمران ، آية ٩٢ .
 - ٢٤- سورة الطارق ، الآيات ١-٧ .
 - ٢٥- سورة النساء ، آية ٦٤ .

لا يجعلوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموها تسليما « (٢٦) .
 فيطيل الفقرة والنفس في النثر ، تجده يقول : « والشمس وضحاها ،
 والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها » (٢٧) .
 فيقصر الفقرة ، والنفس في مع أن كلا منهما نثر في فقرات . وبينما
 تجده يبدع في النثر المرسل فيقول : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين
 الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ،
 ومن الذين هادوا سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك
 يحرفون الكلم من بعد واضعه يقولون ان أوتيتهم هذا فخذوه وان لم تؤتوه
 فأحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين
 لم يرد الله أن يظهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب
 عظيم » (٢٨) . تجده يبدع في النثر المسجع فيقول : « يا أيها المدثر ،
 قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن
 تستكثر ، ولربك فاصبر » (٢٩) . وبينما يسير في هذه السجعة إذ هو
 يعدل عنها في الآيات التي تليها : « فاذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ
 يوم عسير ، على الكافرين غير يسير » (٣٠) . وإلى سجعة أخرى بعدها :
 « ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا مهودا ، وبنسب شهودا ،
 ودهات لة تمهيدا ، ثم يطعم أن أزيد ، كلا أنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرققه
 صعودا » (٣١) . ثم يعدل بعدها مباشرة بفقرة أقصر : « أنه فكر وقدر ،
 فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر
 واستكبر » (٣٢) .

وهكذا تتبع جميع القرآن فلا تجده ، ملتزما شيئا مما في أسلوب
 العرب من شعر أو نثر على مختلف أنواعهما ، ولا يشبهه أقوالهم ، ولا يشبهه
 أي قول من أقوال البشر . ثم أنك تجد أسلوبه واضحا قويا جميلا يؤدي
 المعاني بكيفية من التعبير تصور المعاني أدق تصوير ، فتجده حين يكون

- ٢٦- سورة النساء ، آية ٦٥ .
- ٢٧- سورة الشمس ، الآيات ١-٤ .
- ٢٨- سورة المائدة ، آية ٤١ .
- ٢٩- سورة المدثر ، الآيات ١-٧ .
- ٣٠- سورة المدثر ، الآيات ٨-١٠ .
- ٣١- سورة المدثر ، الآيات ١١-١٧ .
- ٣٢- سورة المدثر ، الآيات ١٨-٢٣ .

المعنى رقيقاً يقول : « أن للمتقين مغازاً ، حدائق واعناباً ، وكواعب اتراباً ،
وكأساً دهاقاً » (٣٣) . فهذا المعنى الرقيق قد جاء بالفاظ رقيقة وجمل
سلسلة .

وحين يكون المعنى جزلاً يقول : « أن جهنم كانت مرصداً ، للطاغين
مآباً ، لاثنين فيها أحقاباً ، لا يدوقون فيها برداً ولا شرباً ، إلا خميماً
وغساقاً ، جزاء وفاقاً » (٢٤) . فهذا المعنى الجزل قد جاء بالفاظ فخمة
وجمل جزلة . وحين يكون المعنى محبباً يأتي باللفظ المحبب : « ورفح
أبويه على العرش وخرأوا له سجداً » (٣٥) . وحين يكون المعنى مستنكراً
يأتي باللفظ المناسب : « ألكم الذكر وله الأمشى ، تلك أذن قسمة فيزي » (٣٦)
ويقول : « واغضض من صوتك ، أن أنكر الأصوات لصوت الحمير » (٣٧) .
وقد صاحب تأدية المعاني بهذه الكيفية من التعبير التي تصور المعاني
مراعاة للالفاظ ذات الجرس الذي يحرك النفس عند تصورها لهذه
المعاني وادراكها لها ، ولتستعرض سورة قصيرة كسور العاديات ولتتأمل
جرسها الموسيقي لنقرأ الآيات أولاً :

« والعاديات ضبحاً ، فالموربات قدحا ، فالمغيرات صبحاً ، فاثرن به
نقعا ، فوسطن به جمعا ، أن الإنسان لربه لكنود ، وأنه على ذلك لشمهيد ،
وأنه لحب الخير لشديد ، أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في
الصدور ، أن ربهم بهم يومئذ لخبير » (٣٨) .

يشعر المرتل لهذه الآيات أن لها طابعاً موسيقياً واضحاً ، وإذا قرأها
قراءة فنية وذلك هو الترتيل - لاحظ انقسامها الى عدة نغمات متناسبة
مع انقسام النص من الوجهة الفكرية والنحوية .

فالقسم الأول من السورة يتألف من خمس فقرات موسيقية ذات
نغمة واحدة ، نقل فيها المدود ، وكل فقرة منها تتألف من كلمتين :

٣٣- سورة النبأ ، الآيات ٣١-٣٤ .

٣٤- سورة النبأ ، الآيات ٢١-٢٦ .

٣٥- سورة يوسف ، آية ١٠٠ .

٣٦- سورة النجم ، الآيات ٢١-٢٢ .

٣٧- سورة لقمان ، آية ١٩ .

٣٨- سورة العاديات ، الآيات ١-١١ .

أولاهما تحتوي على بعض المدود الطويلة ، وثانيتها وهي فاصلة الآية ، كلمة ثلاثية لا مد الا في آخرها : (ضبعا ، قدحا ، صبعا ، نقعا ، جمعا) وهذه الفقرات تمثل بقلة مدودها وتوالي حروفها المتحركة حركة الخيل في عدوها ووقع حوافرها ثم ارتفاعها •

أما القسم الثاني من السورة ، فهو أطول نفساً وأكثر مدوداً ، وكأنه يشير ، بمدوده الطويلة الى التأمل الطويل والهدوء النفسي ، وتختلف كلمة الفاصلة في هذا القسم اختلافاً كبيراً في جرسها الموسيقي عن فاصلة القسم الأول : (كنود ، شهيد ، شديد) •

والقسم الثالث : يجمع بين المدود الطويلة في بعض اجزائه : (أفلا يعلم اذا) وتوالي الحركات في كلمات آخر (بعثر) كما ان فاصلته تختلف عن القسمين السابقين في نبرتها وقوة جرسها (قبور ، صدور) •

ويوجد القسم الأخير في نغمة هادئة ناشئة عن المدود والميم الساكنة والتنوين الى فاصلة تأخذ الياء من القسم الثاني والراء من الثالث •

ويلاحظ أن لبعض الفاظ السورة جرساً ووسيقياً واضحاً مناسباً لمعناها مثل : (قدحا ، ونقعا) المناسبة لوقع حوافر الخيل و (بعثر) المناسبة لانتشار أجساد الموتى بعد خروجها من الأرض ، ومثل (حصل) الدالة بصادها المشددة على شدة التقصي والجمع •

فموسيقى النص في جملتها وتفصيلها ، أي في نغمة الجمل وجرس الالفاظ وفواصل الآيات ، مناسبة للمشهد والافكار ومقابلة لها ، وتنوع بتنوعها وتنسجم انسجامها (٣٩) •

٣٩- انظر تفسير سورة العاديات لاستاذنا المرحوم محمد المبارك •

الفصل الرابع

في التفسير

المبحث الأول

معنى التفسير والتأويل

معناها لفظة :

ذهب جمهور المفسرين واللغويين الى أن التفسير والتأويل بمعنى واحد . فالتفسير هو الايضاح والتبيين ، وفسر الشيء يفسره ، ابانه . قال تعالى : « ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيراً » (١) ، أي بيانا للتفسير في أشهر معانيه اللغوية . قال صاحب القاموس : أول الكلام تأويله وتأوله : دبره وقدره وفسره . ومنه قوله تعالى : « فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله » (٢) وآيات أخرى ورد فيها لفظ التأويل بمعنى البيان والكشف والايضاح .

معناها الاصطلاحي :

ذهب ابن جرير الطبري الى ان معناهما واحد . فالتأويل مرادف للتفسير وهذا ما قاله المتقدمون ومنه قول مجاهد : ان العلماء يعلمون تأويله وتفسيره (يعني القرآن) . ومنه قول الطبري : القول في تأويل وقوله تعالى كذا . . واختلف أهل التأويل في هذه الآية وهو يساوي القول . اختلف أهل التفسير ، فالتفسير والتأويل كلمتان مترادفتان (٣) .

- ١ - سورة الفرقان ، آية ٣٣ ، ولم ترد كلمة (تفسير) في القرآن الكريم في هذا الموضع .
- ٢ - سورة آل عمران ، آية ٧ .
- ٣ - وهذا ما نلاحظه عند تفسيره للآيات . . ذهب أهل التأويل ، وتأويل ذلك الى غير ذلك من العبارات .

وذهب المتأخرون الى خلاف ذلك ، فيرى بعضهم ان التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص فقط ، ويجعل التفسير أعم مطلقاً ، وكأنه يريد من التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه الدليل ، ويريد من التفسير بيان مدلول اللفظ مطلقاً ، أعم من أن يكون بالمتبادر أو بغير المتبادر (٤) .

فالتفسير هو العلم الذي يبحث فيه عن معاني القرآن وناسخة ومنسوخة وعامة وخاصة ومجملة ومبينة وهو يبحث عن ظاهر اللفظ .

أما التأويل فهو المدول عن المعنى الظاهر الى معنى آخر لوجود دليل أقوى يقتضيه . قال الغزالي : التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر (٥) . ثم قال : (ويشبه ان يكون كل تأويل صرفاً للفظ عن الحقيقة الى المجاز) . وقال ابو طالب الثعلبي : (التفسير بيان وضع اللفظ أما حقيقة أو مجازاً كتفسير الصراط بالطريق ، والصيب بالمطر .

والتأويل : تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول وهو الرجوع لعاقبة الامر ، فالتأويل اخبار عن حقيقة المراد .

والتفسير : اخبار عن دليل المراد ، ولان اللفظ يكشف عن المراد ، والكاشف دليل . ومثاله قوله تعالى : « أن ربك لبالمرصاد » تفسيره من الرصد . يقال : رصدته : رقيبته ، والمرصاد : مفعال عنه ، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه ، ثم قال : وقواطع الأدلة تقتضي بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ في اللغة ، فلا اعتبار لتأويل خارج عن مقتضى الكلام وعن قانون الشرع . وهناك فروق كثيرة ومعظمها لا يستند الى أساس (٦) .

٤ - مناهل العرفان ، ص ٤٧٣ .

٥ - المستصفي ، للغزالي ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

٦ - الاتقان للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ ، والحاكم الجسمي للدكتور عدنان زررور ، ص ٢٢٦ .

المبحث الثاني

تاريخ التفسير ومراحل تطوره

من بداية عصر الرسول صلى الله عليه وسلم الى نهاية القرن الثاني

نزل القرآن على النبي ﷺ وأمر بإبلاغه ، قال تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » (٧) فقد كلف النبي ﷺ بالبلاغ ، ثم كلف بالبيان ، قال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » (٨) .

فالنبي ﷺ هو خير من فسر القرآن ، وهداه خير الهدي ، وما نطق به كان وحياً أوحى إليه . فهو المرجع الأول والأخير فيما استصعب على الصحابة . وقد كان ﷺ يسأل فيجيب . سأله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن يوم الحج الأكبر ، فقال النبي ﷺ : يوم النحر . وسئل : (أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما وأبرهما) . وروي عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ فسر قوله تعالى : « أقم الصلاة لذلوك الشمس » قال : لزوال الشمس (٩) . ومثاله ما روي أن النبي ﷺ تلا قوله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا أيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتمون » وفسر الظلم بالشرك وأيد تفسيره بقوله تعالى : « أن الشرك لظلم عظيم » كما فسر النبي ﷺ الحساب اليسير بالعرض ، حيث قال : (من نوقش الحساب عذب) فقالت له عائشة رضي الله عنها : (أو ليس قد قال الله تعالى) : « فاما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً »

٧ - سورة المائدة ، آية ٤٦٧ .

٨ - سورة النحل ، آية ٤٤ .

٩ - الاتقان للسيوطي ، ج ٢ ، ص ١٩٨ . الآية من سورة الاسراء

رقم ٧٨ .

فقال النبي ﷺ ذلك العرض ، بيانا للحساب اليسير . وآيات أخرى قد ورد تفسيرها عن النبي ﷺ ويعتبر تفسيره حديثاً فما صح منه وجب الأخذ به لانه لا ينطق به عن الهوى .

ثم جاء الصحابة رضوان الله عليهم الذين هم أقدر الناس فهما للقرآن ، فوضحوا لنا كثيراً من آياته بأحلى بيان وأوضح تفسير وذلك :

١ - أنهم أعلم الناس باللغة العربية التي هي لغة القرآن ، وهم أعرف الناس باشعار العرب وآدابهم وطريقة خطابهم .

٢ - أنهم عاينوا نزول القرآن ، فعرفوا أسباب نزول الآيات ومناسباتها وملايساتها والظروف التي نزلت بها . وهذا مما يجاي لهم ادراك المعنى .

٣ - سلامة فطرتهم وشدة ملازمتهم للنبي ﷺ وحرصهم على تدبر القرآن كل هذا جعل النفوس صافية موفقة في استلهاهم الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح وموفقة في ادراك الرأي السديد .

الا ان الصحابة رضوان الله عليهم ليسوا على درجة واحدة في الفهم والقدرة على التفسير فهم متفاوتون من حيث ملازمتهم النبي ﷺ . فالصحابة فيهم الكثير للتفسير والرواية وفيهم المقل . قال السيوطي : اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الاربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وابو موسى الاشعري ، وعبد الله بن الزبير . وسنذكر أشهرهم على التوالي :

١ - علي بن ابي طالب :

وهو أكثر الخلفاء الاربعة تفسيراً بالقرآن ورواية للحديث ، وذلك لتاخر وفاته عنهم ولسعة اطلاعه على لغة العرب ولحاجة الناس في زمانه اليه ، وقد عرف كرم الله وجهه بحدة ذكائه ونصاحة لسانه ، وسرعة بديهته ، وغزارة علمه ، ومعرفته لأسباب النزول .

وروي معمر عن وهب بن عبد الله بن أبي طفيل قال : شهدت علياً رضي الله عنه يخطب ويقول : (سلوني ، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ، وسلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم دليل نزلت أم بنهار ؟ أفي سهل أم في جبل ؟) .

وفي رواية عنه قال : (والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما أنزلت . وأين أنزلت ، أن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سئولاً) (١٠) . ولكن الذي يؤسف له أنه قد كذب عليه خلق كثير ، ونقلوا عنه أقوالاً لم يقلها ونسبوا إليه أفعالاً لم يفعلها ، فينبغي أخذ الحيطة والحذر من الأقوال المدسوسة عليه والأفعال المنسوبة إليه .

أصح الأسانيد إلى علي كرم الله وجهه :

- ١ - ما كان عن طريق هشام عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة السلماني عن علي . وهذا السند اعتمده البخاري وغيره .
- ٢ - طريق ابن أبي الحسين عن أبي الطفيل عن علي . وهذه طريق صحيحة يخرج منها ابن عيينة في تفسيره .
- ٣ - طريق الزهري عن علي زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه علي (١١) .

٢ - عبد الله بن مسعود :

وهو من الصحابة الذين رحلوا إلى العراق ، فكان مرجعهم في تفسير القرآن ، وقد كان عالماً بأسباب النزول ، عارفاً بأحوالها ، ويكفيها شهادة علي بن أبي طالب حين قالوا له : أخبرنا عن ابن مسعود ؟ قال : علم القرآن والسنة (١٢) ، ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً .
أصح الأسانيد إلى ابن مسعود :

- ١٠ - مقدمة ابن الصلاح ص ٩ .
- ١١ - مناهل العرفان ص ٤٨٣ .
- ١٢ - مناهل العرفان ص ٤٨٣ .

- ١ - طريق الأعمش ، عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود .
- ٢ - طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود .
- ٣ - طريق الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود .
- وقد اعتمد هذه الطرق الثلاث البخاري في صحيحه (١٣) .

٣ - عبد الله بن عباس :

وهو ترجمان القرآن كما اطلق عليه النبي ﷺ ، فقد روى البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : نعم ترجمان عبد الله بن عباس (١٤) . ويكفي دعاء النبي ﷺ له : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) (١٥) . وتفسير ابن عباس من خير التفاسير ، الا ان الناس قد دسوا ووضعوا عليه الكثير حتى قال الامام الشافعي : (لم يثبت عن ابن عباس في التفسير الا شبيهة بمائة حديث) (١٦) . وتجدر الاشارة الى الطرق الصحيحة والضعيفة حتى نعرف التفسير الثابت من الساقط فمن أجود الطرق وأصحها عن ابن عباس :

- ١ - عن معاوية بن صالح بن علي بن أبي طلحة الهاشمي عن ابن عباس .
- ٢ - عن قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .
- وهذان الطريقتان صحيحان .

٣ - عن ابن اسحق صاحب كتاب السير عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس . وهذه الطريقة حسنة .

٤ - أما أوهى الطرق وهي غير مقبولة فهي طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، وطريق الضحال بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس منقطع . لأن الضحال لم يلق ابن عباس .

١٣- التفسير والمفسرون للذهبي ، ج ١ ، ص ٨٨ .

١٤- الاتقان ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

١٥- الاتقان ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

١٦- الاتقان ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

فاذا وجدت رواية عن ابن عباس من هذين الطريقين ردت بلا تردد وهناك تفسير ينسب الى ابن عباس وهو (المقباس) وقد رجح المحققون رواية مستفيضة كذب نسبتها اليه .

هؤلاء هم أشهر الصحابة الذين روي عن غيرهم كأبي بن كعب الا ان ذلك نزر يسير .

التفسير في عهد التابعين :

تفرق الصحابة رضوان الله عليهم في الامصار الاسلامية ، فمنهم من ذهب للعراق كابن مسعود وعن اخذ التابعون . ومنهم من استوطن المدينة . ومنهم من بقي في مكة . وفي كل بلد برع علماء في التفسير وسنذكر أهم طبقات المفسرين من التابعين :

١ - أهل مكة :

ذكر الامام ابن يتيمة أن أهل مكة أعلم الناس بالتفسير لأنهم أصحاب ابن عباس . لذلك فقد وجد ابرع التابعين من أئمة التفسير ومن هؤلاء المبدعين :

١ - مجاهد بن جبير المتوفي سنة ١٠١ هـ ، وهو أوثق تلاميذ ابن عباس وقد اعتبر الامام البخاري والشافعي تفسيره حجة ، قال النووي رحمه الله : (اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به) بيد ان الرواية عن هذا الامام قليلة ، ويرى بعض العلماء ان مجاهد كان يسأل أهل الكتاب فيتريث في أخذ أقواله المنسوبة اليهم .

٢ - عطاء بن أبي رباح المتوفي سنة ١١٤ هـ ، وقد شهد له العلماء بعلو كعبه في هذا العالم وبعدائه وتقواه ، قال قتادة : (أعلم التابعين أربعة : كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك) وقال ابو حنيفة : (ما لقيت أحدا أفضل من عطاء) .

- ٢ - ومن التابعين بمكة سعيد بن جبير المتوفي سنة ٩٥ هـ ، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفي سنة ١٠٥ هـ . وقد أكثر من التفسير وطاووس ابن كيسان اليماني . المتوفي بمكة سنة ١٠٦ هـ .

٢ - أهل المدينة :

ومن أشهر التابعين المفسرين فيها :

- ١ - زيد بن اسلم المتوفي سنة ١٣٦ هـ ، وقد أخذ عنه ابنه عبدالرحمن بن زيد ومالك بن انس أمام دار الهجرة (١٧) .
- ٢ - وكذلك أبو العالية رفيع بن مهران المتوفي سنة ٩٠ هـ ، وهو من رواة أبي بن كعب وقد روي عنه الربيع بن انس .
- ٣ - ومنهم محمد بن كعب القرطبي المتوفي سنة ١١٨ هـ .

٣ - أهل العراق :

وقد تلقى الكثير منهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
ومن هؤلاء :

- ١ - مسروق بن الاجدع الكوفي المتوفي سنة ٦٣ هـ .
- ٢ - وقتادة بن دعامة السدوسي البصري المتوفي سنة ١١٧ هـ ، وقد وثقتهم أئمة الجرح والتعديل كيحيى بن معين .

ومن التابعين :

- ١ - أبو سعيد الحسن البصري المتوفي سنة ١٢١ هـ .
- ٢ - الهمداني من الكوفة .

١٧- البرهان في علوم القرآن ، ج ٢ ص ١٦١ .

هؤلاء هم أشهر التابعين في سائر الامصار وعندهم أخذ تابعوا
 التابعين كسفيان بن عيينة المتوفي سنة ١٩٨ هـ . ووكيع بن الجراح
 المتوفي سنة ١٩٧ هـ . وشعبة بن الحجاج المتوفي سنة ١٦٠ هـ . وسفيان
 الثوري توفي سنة ١٦١ هـ . ويزيد بن هارون توفي سنة ١٠٦ هـ . وروح بن
 عبادة توفي سنة ٢٠٧ هـ . وعبد الرزاق بن همام الصنعاني (شيخ
 البخاري) المتوفي سنة ٢١١ هـ . واسحاق بن راهوية توفي سنة ٢٢٨ هـ .
 وآدم بن ابي اياس العسقلاني توفي سنة ٢٢٠ هـ .

تدوين التفسير :

بقي علم التفسير مفرقا ومنشورا في احاديث متفرقة ، فيروي
 الصحابي أو التابعي تفسير الآية دون ان يترتب ذلك في باب أو كتاب ،
 ولم يرد لنا الكتاب في التفسير يفسر لنا القرآن سورة سورة ، وآيه آية
 كما هي مرتبة في المصاحف ، أما ما روي ان ابن عباس قد فسر الفرقان
 في تفسير المقباس فان هذا لم تصح نسبته الى ابن عباس وقد رد هذا
 الزعم رداً علمياً صحيحاً .

والذي يروي لنا ان الفراء سنة ٢٠٧ هـ هو أول من قام بتفسير
 القرآن سورة سورة وآية آية قال ابن النديم في كتابه الفهرست :
 (ان عمر بن بكر كتب الى الفراء ان الحسن بن سهل ربما سألني عن
 الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب فان رأيت ان تجمع
 لي أصولا ، أو تجعل في ذلك كتابا أرجع اليه فعلت) .

فقال الفراء لاصحابه : اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن ،
 وجعل لهم يوماً ، فلما حضروا خرج اليهم ، وكان في المسجد رجل يؤذن
 ويقرأ بالناس في الصلاة ، فالتفت اليه الفراء فقال له : اقرأ بفاتحة
 الكتاب ففسرها ثم توفي الكتاب كله ، فقرأ الرجل وفسر الفراء فقال
 ابو العباس : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب ان أحداً يزيد عليه (١٨) .

١٨- هذا وفي هذا رأى ابي العباس نظر : أما قوله لم يعلم احد قبله
 مثله ، فهذا رأيه وبما قارنه مع غيره من التفاسير . أما قوله :
 ولا أحسب أحداً يزيد عليه ، فان حسابانه لم يكن كما توقعة بل
 وجد الكثير وأول الكتب التي زادت عليه كتاب ابن جرير الطبري .

المبحث الثالث

مصادر التفسير

اعني بالمصادر هنا تلك المراجع التي يرجع اليها المفسرون حين يفسرون القرآن الكريم . وذلك بغض النظر عن الاتجاه الذي اتجهه كل واحد منهم في تفسيره ، وقد اخطأ من اعتبر الافكار التي صبغت تفاسير كثير من العلماء بصيغة معينة ، كأن يغلب على تفسير أحدهم النحو والصرف أو التوحيد والعقائد ، أو البلاغة ، أو التاريخ والقصص ، أو العلوم والحكم ، فان هذه لا تعتبر من المصادر ، بل هي أمور اثرت على المفسر فنجا نحواً معين في التفسير ، أما المصادر فهي :

أولا - القرآن الكريم :

ويعتبر أهم مصدر من مصادر التفسير لأدلة نقلية وعقلية ، فمن الأدلة النقلية ، قوله تعالى : « .. فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » (١٩) .

فعندما نحمل آية غمض معناها على آية أخرى تفسرها نكون قد رددنا الأمر إلى الله . وأما الدليل العقلي فهو ان القائل أحق من غيره في تفسير مقولة ، ثم ان القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر الاسلام . فيعتبر بالضرورة المصدر الأول في التفسير لهذا فقد اجمعت الأمة سلفاً وخلفاً على ان أصح طرق التفسير ان يفسر القرآن كما قال ابن تيمية .

كيف تتم عملية تفسير القرآن الكريم بالقرآن ؟ :

يشتمل القرآن على الایجاز والاطناب ، وعلى الاجمال والتبيين وعلى الاطلاق والتقييد ، وعلى العموم والخصوص ، وما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر ، وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر ،

١٩- سورة النساء ، آية ٥٩ .

وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه تغيير في ناحية أخرى ، وما كان عاماً في آية قد يلحقه التخصيص في آية أخرى ، ولهذا يجب على من يتعرض لتفسير كتاب الله أن ينظر أولاً ، فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد ، ويقابل الآيات بعضها ببعض ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً ، وبما جاء مبيناً على فهم ما جاء مجملاً ، وليحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن ، وفهم مراد الله بما جاء عن الله . وهذه مرحلة لا يجوز لاحد مهما كان أن يعرض عنها ويتخطاها الى مرحلة أخرى ، لأن صاحب الكلام أدري بمعاني كلامه واعرف من غيره (٢٠) (واسوق اليك مثالا من اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن) : قوله تعالى : « **والذي خلق الأزواج كلها** » .

الأزواج : الاصناف ، والزوج تطلق العرب على الصنف . وقد بين الله تعالى أن الأزواج المذكورة هنا تشمل اصناف النبات ، وبني آدم ، وما لا يعلمه الا الله .

قال تعالى « **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » . وقال تعالى : « **وانزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى** » . وقال تعالى : « **فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** » أي من كل صنف حسن من اصناف النبات . وقال تعالى : « **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** » ومن اطلاق الأزواج على الاصناف في القرآن قوله تعالى : « **وآخر من شكله أزواج** » وقوله : « **ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم** » وغيرها كما ورد في سورة الصافات : « **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** » .

هذا وقد اصبح لهذا اللون من ألوان التفسير مدرسة خاصة (٢١) .

ومن أواخر ما صدر : كتاب قيم للمرحوم الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار المكني الشنقيطي .

٢٠- تفسير والمفسرون لذهب ، ج ١ ، ص ٣٧ .
 ٢١- أشهر الكتب هو كتاب (اضواء البيان) لمحمد الأمين الشنقيطي الا انه غير كامل . وقد قام بتوزيعه رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالسعودية . وهناك كتاب لمحمد عزة دروزة .

أما ما صدر أخيراً (التفسير القرآني لقرآن) لعبد الكريم الخطيب (٢٢) فقد فسر فيه كثيراً من الآيات بعقله وتأثر الى حد كبير بالتفسير العلمي وقد ابعده في بعض المواطن من التفسير القرآني بالقرآن .

القراءات والتفسير :

ان كثيرين ممن يتصدون للحديث في مثل هذا يعتمدون الى طائفة من القراءات الشاذة التي لا يصلح في شيء من معايير التحقيق الواجب الاخذ به ولا سيما في هذا المجال ، المهم من العلم والدين ان يعتمد شيء منها من القرآن أصلاً حتى يصلح ان يقال فيه انه من تفسير القرآن بالقرآن . ولو لزموا الجادة وسلكوا السبيل المستبين لابعدوا هذا النوع مما نحن فيه بالكلية وسلكوه فيما هو من قبيل التفسير بالسنة أو بما هو من أقوال الصحابة .

لقد صح اعتبار القراءة المتواترة قرآناً ، فجعلها المحققون ان بينت قراءة أخرى من قبيل تفسير القرآن بالقرآن ، وقد مثلوا لذلك بقراءة (مالك يوم الدين) وقراءة (ملك يوم الدين) وتبين المفسرون معنى القراءتين في كتبهم فليرجع اليها .

أما القراءة الشاذة فيجب القطع بكونها ليست قرآناً ولا من قبيل التفسير القرآن بالقرآن ، بل من قبيل التفسير بالسنة الصحيحة المنسوبة الى النبي ﷺ ، أو بما هو من أقوال الصحابة رضوان الله عليهم ، فان هذا هو التحقيق الذي لا مرية في صحته لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ، وهذا ما اختاره السيوطي وغيره حيث قال : (وظهر لي سادس - يعني من أنواع القراءات على وجه التفسير : كقراءة سعد بن أبي وقاص « وله أخ أو أخت من أم ») اخرجها سعيد بن منصور . وقراءة ابن عباس : (ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج) اخرجها البخاري . وقراءة ابن الزبير : (ولتكن منكم أمة يدعون

٢٢- والصاحب كتاب (اتجاهات التفسير في العصر الراهن تليق عليه
ونقد مفيد) والكتاب للدكتور عبد المجيد المحتسب في الجامعة
الاردنية - نشر دار النهضة الاسلامية - عمان .

الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما اصابها) قال عمرو : فما أدري اكانت قراءته أم فسر . اخرجته سعيد بن منصور واخرجه الانباري . قال ابن الجزري : (وربما كانوا يدخلون للتفسير من القراءات ايضاحاً وبياناً لانهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآنا فهم آمنون من الالتباس وربما كان بعضهم يكتبه معه) (٢٣) .

ثانياً - السنة النبوية :

وهي المصدر الثاني للتفسير بعد القرآن الكريم وتتمثل بأقوال وافعال وتقريرات الرسول ﷺ . وقد وضحنا لك ذلك ولكن لا بد من اتمام الفائدة في بيان القدر الذي بينته السنة فان هذا الموضوع مما كثر فيه الخلاف ، ومما تعددت فيه الآراء في فهم المراد من قول شيخ الاسلام ابن تيمية . وحسماً للخلاف فلا بد من ذكر مقالة ابن تيمية بالنص لنتبين الحق والصواب ، فقد جاء في مقدمته في اصول التفسير ما نصه :

- ١ - فصل ان النبي ﷺ بين لاصحابه معاني القرآن : يجب ان يعلم ان النبي ﷺ بين لاصحابه معاني القرآن كما بين لهم الفاظه ، كقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل اليهم » يتناول هذا وهذا .
- ٢ - وقد قال ابو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : انهم كانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، وقالوا : فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً (٢٤) ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة .

- ٢٣- انظر كتاب دراسات في مناهج المفسرين للدكتور ابراهيم خليفة ، ص ٥٨ . وله كلام مفيد وجيد ونقلنا شيئاً منه بتصريف يسير .
- ٢٤- مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية تحقيق الدكتور عدنان زرزور ص ٣٦ . انظر مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٣١/٢ . راجع كذلك تفسير القرطبي ٨٠/١ وانظر تعليق الشيخ احمد شاكر . أما أبو عبد الرحمن السلمي فهو عبد الله بن حبيب التوفي المغربي من كبار التابعين ، ثقة ، ثبت ، ولايه صحبة . انظر تقريب التهذيب لابن حجر ٤٠٨/١ .

وقال أنس : (كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا) (٢٥)
 وقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين ، قيل ثمان سنين ذكره مالك (٢٦)
 وذلك ان الله تعالى قال : « **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته** » (٢٧)
 وقال : « **أفلا يتدبرون القرآن** » (٢٨) وقال : « **أفلم يدبروا القول** » (٢٩)
 وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن . وكذلك قال الله تعالى :
 « **أنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** » (٣٠) وعقل الكلام متضمن
 لفهمه . ومن المعلوم ان كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد
 ألفاظه ، فالقرآن أولى بذلك .

٣ - وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم ، كالطب
 والحساب ، ولا يستشرحوه ، فكيف بكلام الله تعالى الذي هو

عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم (٣١) .

أ.هـ . كلام ابن تيمية . .

فهم السيوطي من عبارة ابن تيمية : (ان البيان النبوي قد شمل
 معظم القرآن وقال ويؤيد هذا ما أخرجه احمد وابن ماجه عن عمر رضي الله
 عنه انه قال : من آخر ما نزل آية الربا وان رسول الله ﷺ قبض قبل ان
 يفسرها . دل فحوى الكلام على انه كان يفسر لهم كل ما نزل ، وانه
 لم يفسر هذه الآيـة لسرعة موته بعد نزولها والا لم يكن للتخصص بها
 وجه) (٣٢) .

٢٥- المصدر السابق ص ٣٦ . وقال المحقق : أخرجه الامام أحمد في
 المسند من طريق يزيد بن هارون عبد الله بن ابي بكر السهمي كلاهما
 عن حميد ، عن أنس ، وفيه (جد فينا) أي صار ذو خطوة وقدر
 عظيم . و (يعد فينا) والحديث جملة عارضة فيها فقال وحولها

شرح يطول . راجع ثلاثيات الامام أحمد ٢/٢٧٦ .

٢٦- الموطأ ١/٢٠٥ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

٢٧- سورة ص ، آية ٢٩ .

٢٨- سورة النساء ، آية ٢٨ .

٢٩- سورة المؤمنون ، آية ٦٨ .

٣٠- سورة يوسف ، آية ٣ .

٣١- مقدمة في اصول التفسير ص ٣٦-٣٧ .

٣٢- الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

قال الدكتور ابراهيم خليفة : وقد اسهم فهم السيوطي الخاطيء من عبارة شيخ الاسلام في توريظ الاستاذ الدكتور الذهبي في فهمه لمراد ابن تيمية اذ جعله على رأس القائلين بأن الرسول ﷺ بين كل معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه .

وقد بين صاحب دراسات في مناهج المفسرين خطأ فهم استاذه المرحوم الذهبي اذ يقول : معنا قرينتان متاليتان من قول شيخ الاسلام نفسه في هذا المجال صريحتان في انه لا يمكن ان يعني بحال من الاحوال شمول البيان النبوي لجميع القرآن :

احدهما :

تصريحه ان احسن طرق التفسير واصحها ان يطلب اول ما يطلب من القرآن ذاته وانه حين يعيننا ذلك فحسب ننتقل الى السنة على ما قال طيب الله ثراه في هذه المقدمة من ان احسن طرق التفسير القرآن يفسر القرآن . فان اعيانك ذلك فعليك بالسنة ، فاذا كان البيان النبوي شاملا لجميع القرآن . . اذن فما نسبة هذا الزعم لشيخ الاسلام ؟ فماذا بقي بعد ذلك للقرآن حتى يفسر بعضه بعضاً بل حتى يقدم ذلك ولا ينتقل عنه الى طلب البيان من السنة ؟! حيث لا نجده .

اما القرينة الثانية :

من كلام الشيخ نفسه في هذه المقدمة منقولة بعد ان فرغ من الحديث عن السنة (وحينئذ اذا لم نجد في القرآن ولا في السنة رجعا في ذلك الى أقوال الصحابة ، فانهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرائن والاحوال التي اختلفوا لها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح . .) .

فاذا السنة قد بينت جميع القرآن ، فماذا يمكن ان يكون قد بقي اذن لاقوال الصحابة حتى نرجع اليها في التفسير ؟ ، بل ما معنى قوله حينئذ اذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ؟ ولا يقال فرق بين الا نجد نحن الشيء وان يكون الشيء معدوماً في الواقع ونفس الامر ،

فلعل مراد شيخ الاسلام من قوله هذا ان لم نجد التفسير في السنة وان كان قد جاء عنه عليه السلام في الواقع ونفس الامر - لكونه قد فقد أو لم يبلغه الصحابة لمن بعدهم . فلا يكون في قوله مصادقة البتة لهذا الزعم فضلا عن ان يكون قرينة صريحة على خلافه ، لا يقال ذلك ، لاننا نقول : احتمالات سقيمات على غاية من البعد عن حيز الامكان والقرب من ساحة المحال .

أما فقد فمجااف لمنطق الضرورة البينة بنفسها التي لا تحتاج الى تنبيه عليها ، فان مثل هذا الامر مما تتوافر الدواعي على نقله وتمام المحافظة عليه ، كيف لا وهو متعاق بعمود الدين ورأس الامر فيه أعني القرآن الكريم فلا يعقل ان تذهل عن مثله عناية حفاظ الشريعة ، وقد حفظوا ما دون ذلك بدرجات كثيرة .

أما عدم البلاغ فخارج عن نطاق اندين بالكلية فانه قادح في عدالة الصحابة التي شهد لهم بها الله ورسوله .

من هذا يتضح انه لا يفهم من كلام ابن تيمية ان النبي عليه السلام قد فسر جميع القرآن .

أما الذين استدلوا بالأدلة السابقة بأن النبي قد فسر جميع القرآن فاستندوا الى قوله تعالى : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (٣٣) .

وان هذا القول متناول لبيان جميع الفاظ القرآن ومعانيه ، ا أن ما في قوله سبحانه : « ما نزل اليهم » لكونها من صيغ العموم فانها تشمل جميع ما يندرج تحتها من الفاظ القرآن ومعانيه ما لم تقم قرينة على التخصيص ببعض ذلك ، ولا قرينة هنا فيجب الحمل على العموم الشامل لجميع الالفاظ والمعاني (٣٤) .

٣٣- سورة النحل ، آية ٤٤ .

٣٤- دراسات في مناهج التفسير ، ص ٢٤٤ .

نقول لهم : ان القرينة المخصصة للعموم موجودة فبعد عشرين آية من هذه الآية ورد قول الله تعالى : « وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه » (٣٥) فلا يتم التفسير الصحيح ولا الفهم السديد الا يجمع الآيتين لان خير ما يفسر انقرآن هو القرآن ذاته ، فالبيان المطلوب من النبي ﷺ هو في توضيح ما خفي على الصحابة وما استشكلوه واختلفوا فيه ، وليس بمطلوب منه ﷺ بيان ما لم يخف فان واقع أمر القرآن وأمر من انزل بلسانهم ان فيه كثيرا من البيان ، بل قل بدهية البيان بأنفسها بالنسبة لكل ذي حظ من معرفة هذا اللسان فضلا عن أهله الخالص ، فلا يسوغ منطق ذي منطق ، مع هذا ان يقوم الرسول ﷺ ببيان أمثال هذه الجليات .

أما استدلالهم بأن الصحابة كانوا لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . فليس في هذا الاثر وجهه لاستدلالهم على أن النبي ﷺ ، فسر لهم جل القرآن كلمة كلمة ، وآية آية ، لأن الأثر يحكي ما كان عليه حال العلم وطلبه والاهتمام به والعمل بمقتضاه في عهد النبي ﷺ وطلب العلم قد يكون بالرجوع اليه ﷺ وقد يكون بالرجوع الى اللغة . قال القرطبي عن هذا الحديث : انه حكاية ما كان عليه العلم وطلبه (٣٦) .

وقال المرحوم أحمد شاکر : فهو يحكي ما كان في ذلك العهد النبوي المنير (٣٧) ، فليس في الأثر ما يفيد ان النبي ﷺ فسر لهم جميع القرآن .

أما الدليل الثالث : فهو ان العادة تمنع ان يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه ، فكيف بكلام الله فان هذا الدليل العقلي لا يتعارض مع كون النبي ﷺ بين كل شيء تحتاجه الامة ، ولم يبين ما هو معروف بالضرورة وباللغة .

٣٥- سورة النحل ، آية ٦٤ .

٣٦- القرطبي ، ٣٩/١ .

٣٧- حاشية تفسير الطبري ٨٠/١٠ .

من كل ما تقدم يتضح ان نسبة القول الى ابن تيمية بأن الرسول ﷺ قد فسر جميع القرآن ، هذه النسبة غير صحيحة ، كما ان السيوطي والذهبي لم يوفقا في فهم المراد من كلامه ، والسيوطي الذي تبرع بتأييد أحد الاحتمالين لم يقل بأي الاحتمالين ، بل ذهب مذهبا آخر فقال عن التفسير المرفوع للنبي ﷺ الذي صح من ذلك قليل جداً بل أصل المرفوع في غاية القلة (٢٨) .

وهناك من روى عن عائشة قالت : (ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن الا آيات بعد علمهن اياه جبريل عليه السلام) أخرجه البزار رحمه الله .

هذا الحديث يستدل به فريق من العلماء ان النبي ﷺ لم يفسر إلا آيات معدودة . والواقع ان هذا الحديث منكر في رواته أبو جعفر بن محمد الزبيري (٣٩) . قال الحافظ ابن كثير عنه في مقدمة تفسيره : انه حديث منكر غريب ، فلا يصح الاستدلال به ولا يثبت به دعوى والحقيقة التي نسلم بها ان مقدار بيان السنة للقرآن يختلف باختلاف تفسير معنى البيان فان جعلناه شاملاً للاحكام التي زادت السنة على ما في القرآن كتحریم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها ، وتحریم الحمر الأهلية وغير ذلك ، فالسنة قد بينت الكثير واذا كان معنى البيان لا يشمل الاحكام ، بل يقتصر على تفسير المهم وبيان المجمل ، فمقدار المفسر المبين بالسنة هو دون ذلك بكثير .

٣٨- الاتقان ، ج ٢/٢٠٥ .

٣٩- انظر تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٦ . قال ابن كثير : وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري ، قال البخاري : لا يتابع في حديثه ، وقال أبو الفتح الأزدي منكر الحديث .

أوجه بيان السنة للقرآن

- ١ - بيان مجمل القرآن مثل قوله تعالى : « اقيموا الصلاة » فهذا لفظ مجمل ، وقد جاءت السنة القولية والفعلية بتفصيله ، فقال ﷺ : (صلوا كما رأيتموني أصلي) أخرجه البخاري .
- ٢ - تخصيص العام مثل قوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » فهذا الحكم عام وقد خصص بفعل النبي ﷺ ، إذ أمر بما عجز الأسلمي فرجم .
- ٣ - تقييد المطلق : كقوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » وقد قيد النبي ﷺ القطع فجعله لليد اليمني .
- ٤ - تفسيره ﷺ للفظ غمض على البعض وأشكل عليه فهمه لكونه مستعملا في معنى مجازي ومثاله لما نزل قول الله : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود حتى الفجر » أخذ عدي بن حاتم خيطاً ووضعته تحت وسادته ، فأفهمه النبي ﷺ ان المراد بياض النهار وسواد الليل .
- ٥ - ومن ذلك بيانه ﷺ لكون النص القرآني شاهداً لما يقول أو يفعل كقوله ﷺ : (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فانما هو استدراج ، ثم تلا رسول الله ﷺ : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) (١) .

١ - الحديث عن أحمد والبخاري وأبي داود والنسائي وابن ماجه .
انظر تفسير ابن كثير ٩/١ ودراسات في مناهج المفسرين ص ٢٤٠ ،
الآية في سورة الانعام رقم ٤٤ .

٦ - ومن ذلك مطلق شرحه ﷺ لبيان معنى شيء من مفردات القرآن أو تراكيبه كالذي أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : (كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو طاعة وغير هذا كثير من الأوجه اكتفينا بالمذكور ومن أحب استتصاء ذلك فليرجع الى مناهج المفسرين) (٢) .

هذا وفي هذا المبحث كلام عن بيان الحاجة الملحة لبيان السنة للقرآن وأسباب الوضع على رسول الله في التفسير ومقداره ، الا ان ما كتبناه عن التفسير قد زاد عن القدر المخصص له وقد استوفيته من مذكراتي (محاضرات في التفسير) القيت على طلبة الدراسات العليا .

٢ - انظر هذه الأوجه وغيرها في مناهج المفسرين ، ص ٢٣٩ وما بعدها .

المصدر الثالث

الرأي

وهو ما يطلق عليه الاجتهاد في التفسير .

كان جمهرة المفسرين من الصحابة يفسرون بالرأي ، ويعتمدون عليه في التفسير ، وإذا لم يرد فيه قرآن ولا سنة ، وكان اعتمادهم على فهمهم الخاص ، وكان خلافهم في الاحكام أكثر من خلافهم في التفسير وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع الى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم ، فقال بعضهم هو القرآن - أي اتباعه - في حديث علي رضي الله عنه هو جبل الله المتين (١) .

وقال بعضهم : (هو الاسلام) فهذان اتقوان متفقان لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما ان لفظ (صراط) يشعر بوصف ثالث هو في قول القائل : (السنة والجماعة أو قول آخر هو طريق العبودية ، أو قول آخر هو طاعة الله ورسوله) ، فهؤلاء كلهم أشاروا الى ذات واحدة لكن وصفها كل بصفة من صفاتها .

ومثال ذلك في التفسير في قول الله : « واليوم الموعود وشاهد ومشهود » فقد اختلفوا في المعنى على أحد عشر قولاً نسب جلهما الى الصحابة (٢) .

واختلافهم في معنى الطور في قوله تعالى : « واذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور » (٣) ، فمنهم من قال : (الطور : مطلق جبل وآخر قال : جبل بعينه ، وثالث يرى انه ما انبت من الجبال ، فهذا الاختلاف بين الصحابة ناشيء عن اختلاف في الاجتهاد والرأي ، وليس نتيجة للاختلاف في المنقول .

- ١ - الحديث رواه الترمذي وابو نعيم من طرق متعددة .
- ٢ - انظر تفسير ابن عينية وقد جمعه وحقق الطالب احمد صالح المحاييري وكان باشرافنا أو ، الاقوال جميعها ص ٣٦٠ وكذلك انظر ص ٦٠ .
- ٣ - سورة البقرة ، آية ٩٣ .

هذا فيما يتعلق باللفظة الواحدة ، فما بالك حين يكون الرأي لمدلول جملة لا معنى لفظة . فالصحابه رضوان الله عليهم كانوا يعتمدون على الرأي ، وأما ما نقل عن بعضهم التحرج عن التفسير بالرأي والاقتصار على التفسير بالمنقول ، فإنه يحمل على رأي من لم يستكمل أدوات التفسير وهي العلم باللفظة العربية المراد تفسيرا ، وبالحوادث التي نزلت في شأنها الآيات ولا يحمل على التحرج من فهم القرآن لأنه انزل ليفهمه الناس لا ليقتصروا على حد ما نقل من تفسير وبالرجوع الى النصوص التي وردت في ذلك يتبين منها سبب التحرج ، وقد روي عن سعيد بن المسيب أنه كان اذا سئل عن شيء من القرآن قال : انا لا أقول في القرآن شيئا ، فهو ينفي عن نفسه القول بالقرآن ولا ينفي القول بالقرآن بالرأي .

وقال ابن سيرين : سألت ابا عبيدة عن شيء من القرآن ، فقال : اتق الله وعليك بالسداد ، فقد ذهب الذين يعلمون فيما انزل القرآن (ومعلوم ان ابا عبيدة من كبار الصحابة وهو يطلب من لزوم السداد ومعرفة فيما انزل القرآن ، فهذا التورع والتحرج قد بين أبو عبيدة سببه :) (وعليك بالسداد فقد ذهب الذين يعلمون فيما انزل القرآن) ، فاذا وجد من يتحرى السداد ، فلا شك انه يقول فيه برأيه واجتهاده وعلى ذلك لا تستطيع ان تقول ان الصحابة كانوا منقسمين على قسمين ، قسم يتورع أن يقول بالقرآن برأيه ، وقسم يقول بالقرآن برأيه ، وإنما كانوا يقولون بالقرآن برأيهم ، وكانوا يتورعون ان يقول أحد بالقرآن برأيه عن غير علم ، وكان كذلك التابعون الذين قالوا بالقرآن برأيهم وكان الخلاف بينهم أكثر . الا انه جاء من بعدهم من اطلعوا على هذه الأقوال وفهموها انها تحذير من قول بالقرآن بالرأي وانقسم العلماء الى قسمين : قسم يتحرج بالقول بالتفسير بالرأي ويقتصر على المأثور ، وقسم يقول بالتفسير بالرأي وتكونت مدارس المأثور ومدارس الرأي في التفسير .

المصدر الرابع

الاسرائيليات

عرف العلماء المحققون الاسرائيليات بانها القصص والأخبار اليهودية والنصرانية التي تسربت الى المجتمع الاسلامي بعد دخول جمع من اليهود والنصارى الى الاسلام أو تظاهرهم بالدخول فيه (١) . وتنقسم الاسرائيليات باعتبار حكم الاسلام فيها الى ثلاثة أقسام :

١ - ما وافق شرعنا .

٢ - ما خالف الشرع .

٣ - ما سكت عنه الشرع .

وقد ذهب الى هذا التقسيم الحافظ - بن كثير وبين الحكم الشرعي في كل نوع فقال : ان الاحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد وهي على ثلاثة أقسام :

احدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل . فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود الى أمر ديني . ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرا ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب أهل الكهف ولون كلبهم وعددهم . وعصى موسى من أي الشجر

١ - الالوسي مفسراً ، مخطوطة بجامعة القاهرة حققها محسن عبدالحميد ، ص ٤١٩ ، انظر الاسرائيليات في التفسير للدكتور رمزي نعاينة ص ٧٣ .

كانت وأسماء الطيور التي أحيها الله لآبراهيم ، وتعين البعض الذي ضرب به القليل من البقرة ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى . الى غير ذلك مما ابهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم ، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز (١) .

بهذا التقسيم الدقيق والتحقيق البالغ من ابن كثير نستطيع ان نفهم الاحاديث الواردة عن النبي ﷺ بشأن الاسرائيليات ، فقد روى البخاري عن ابن عمر ان النبي ﷺ قال : بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار (٢) .

فهذا الحديث يتعلق بما وافق شرعنا . أما ما روي عن عمر انه كان يقرأ في التوراة فغضب النبي ﷺ فهذا محمول على ما خالف شرعنا .

أما ما سكت شرعنا عنه فلا هو من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فقد قال رسول الله ﷺ : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما انزل) قال العلامة العيني في شرح الحديث : لا تصدقوا . الخ . يعني اذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه . أو كذباً فتصدقوه فتقعوا في الحرج .

وقد أحسن الخطابي في شرحه لنفس الحديث وللأحاديث السابقة اذ يقول :

لم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاته ، وهذا الحديث : أي لا تصدقوا ولا تكذبوا . أصل في وجوب التوقف عما يشكك في الامور فلا يتضي عليه بصحة أو بطلان ، ولا بتحليل ولا تحريم ، وقد امرنا ان نؤمن بالكتب المنزلة

١ - تفسير ابن كثير ، ج ١ ص ٤ .
٢ - انظر صحيح البخاري في كتاب الانبياء ، وقد اخرجه أيضا أحمد والترمذي .

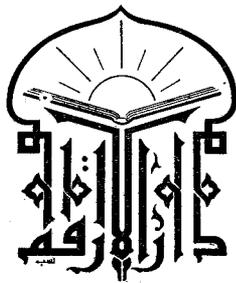
على الانبياء عليهم السلام الا انه لا سبيل لنا الى ان نعلم صحيح ما يحكونه
عن تلك الكتب من سقيمہ فنتوقف فلا نصدقهم لئلا نكون شركاء معهم
فيما حرفوه منه ، ولا نكذبهم فلعله يكون صحيحا ، فنكون منكرين لما
أمرنا أن نؤمن به (٣) . وهذا النوع هو أكثر الانواع التي رويت في
التفسير كما قال ابن كثير وقد ازداد شيئا فشيئا ، بدأ من عهد
الصحابة والتابعين وكان كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام
من أكثر أهل زمانهم رواية لها لعلمهم بالكتاب ثم تضخمت بعدهم القصص
والاخبار حتى أصبحت مصدرا من مصادر التفسير . وبالحدیث عن
المصدر الرابع ينتهي الكلام عن مصادر التفسير ونكتفي بهذا القدر في
حديثنا عن التفسير وتاريخه ومصادره فان الاسباب فيه يحتاج الى كتاب
كامل . أسأل الله أن يعينني على اتمامه قريبا .

٣ - الحديث لا تصدقوهم ، اخرجہ البخاري في كتاب التفسير .

الفرس

الصفحة	الموضوع
٥	الباب الأول - القرآن والوحي
٧	الفصل الأول : القرآن الكريم وفيه ثلاثة مباحث
٧	المبحث الأول : تعريفه لغة واصطلاحاً
٩	المبحث الثاني : أسماؤه
١٣	المبحث الثالث : لغته
٢١	الفصل الثاني : الوحي
٢١	المبحث الأول : معناه لغة واصطلاحاً
٢٣	المبحث الثاني : دليله
٢٧	المبحث الثالث : حالاته
٣٠	الباب الثاني - نزول القرآن
٣٢	الفصل الأول - بدء النزول ونهايته
٣٨	الفصل الثاني - ضرورة معرفة أسباب النزول وفائدته
٤٧	الفصل الثالث - نزوله على سبعة أحرف
٥٦	الفصل الرابع - نزوله بالقراءات المتواترة
٧٨	الفصل الخامس - المكى منه والمدني ومميزات كل منهما
٨٤	الباب الثالث : جمع القرآن وتدوينه
٨٦	الفصل الأول : الجمع في عهد النبي ﷺ
٩٠	الفصل الثاني : الجمع في عهد الصديق
٩٢	الفصل الثالث : الجمع في عهد عثمان
٩٥	الفصل الرابع : كتابة المصحف بالرسم التوقيفي
٩٧	الفصل الخامس : ترتيب الآيات والسور

١٠٣	الباب الرابع - لمحة تاريخية عن (أقسام القرآن)
١٠٥	الفصل الأول : أقسام القرآن
١٠٥	المبحث الأول : المنطوق والمفهوم
١٠٩	المبحث الثاني : العام والخاص
١١٢	المبحث الثالث : المطلق والمقيد
١١٣	المبحث الرابع : المجمل والمبين
١١٤	المبحث الخامس : المحكم والمتشابه
١٢٢	الفصل الثاني : النسخ في القرآن الكريم
١٢٢	المبحث الأول : معنى النسخ لغة واصطلاحاً
١٢٤	المبحث الثاني : رأي العلماء قديماً وحديثاً في وقوعه
١٢٥	المبحث الثالث : أنواع النسخ
١٢٩	الفصل الثالث : اعجاز القرآن
١٢٩	معنى الاعجاز لغة واصطلاحاً
١٣٠	وجوه الاعجاز
١٣٩	الفصل الرابع : في التفسير
	المبحث الأول : في معنى التفسير والفرق بينه
١٣٩	وبين التأويل
١٤١	المبحث الثاني : تاريخ التفسير ومراحل تطوره
١٤٨	المبحث الثالث : مصادره وطرقه
١٥٧	أوجه بيان السنة للقرآن



تصويبات

الصفحة	السطر	الخطا	التصويبات
٨	٢٦	الدهسى	القدسسى
١٣	الايخير	واقوم قليلا	واقوم قليلا
٢٧	الاول	يكلمه الله وحيا	يكلمه الله الا وحيا
٤١	٢٣	ازواجهن	ازواجهم
٥٦	١٢	الناقة	الناقلة
٨٦	٨	ان علينا بيانه	ثم ان علينا بيانه
٩١	٨	ومن المؤمنين	من المؤمنين
١٠٨	٦	تكرهوا	تكرهوا
١٠٨	٢/الحاشية	التوبة	النور

